علي محمد عبد اللطيف



تمبكتو
أسطورة التاريخ





جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

تمبكتو
أسطورة التاريخ

علي محمد عبد اللطيف

تمبكتو

أسطورة التاريخ



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الطبعة الأولى

1369 من وفاة الرسول ﷺ الموافق 2001 مسيحي

رقم الإيداع المحلي: 3970/ 2001 دار الكتب الوطنية بنغازي

رقم الإيداع الدولي : ردمك 7 - 021 - 28 - ISBN 9959



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

. . . في سبيلها مات رواد وجنرالات وجنود، ورجال مخابرات وجواسيس تقمصوا سبيل البحث والاستكشاف، وتغطوا بثياب الرحالة والمستكشفين، للبحث عنها ولمعرفة كنهها.

. . . وفي سبيلها تصارعت دول أوروبية حتى حافة الحرب. .

ومن أجلها دخل قناصة إنجلترا وفرنسا في طرابلس الغرب بشكل خاص، في صراع محموم ومسعى مكشوف لمن يصل إليها أولاً، ويحقق كهدف مكشوف للعالم، رغبته في إماطة اللثام عن أسرارها، ومعرفة الطرق الموصلة إليها. . وكهدف خفي معرفة الطرق الموصلة إليها لاستعمارها ونهب خيراتها.

ومن أجلها أرسلت آلاف البرقيات والرسائل السرية إلى وزارات المستعمرات في دول أوروبا، من قناصلة تلك الدول في الشمال الإفريقي، لتخبر عن ثرائها وعن الإشعاع الثقافي والتجاري الذي تمثله في منطقة السودان الغربي وعلى حافة الصحراء الكبرى.

ومن أجلها كانت الكتب التي خرجت عنها في أوروبا تطبع وتترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية، ليتلقفها الناس في أوروبا فوراً، وتسرح عقولهم في أسرارها وغموضها ليالي بكاملها، تحركهم شهوة الطمع في الوصول إلى ثرواتها، وكنوزها التي لا تنضب.

أنها تمبكتو. . . الخالدة التي حملت أسماء «المدينة الغامضة» و«المدينة السرية» و«المدينة الممنوعة» و«جوهرة الصحراء» و«مدينة الإشعاع الإسلامي» وغيرها من الأسماء الأخرى التي عكست حضارتها على مدى ثلاثة قرون بكاملها، أشعَّت فيها وبفضل علمائها وأئمتها، وشيوخها، ومرابطيها على كامل السودان الغربي، والأوسط وإلى أبعد من ذلك.

وعلى أرضها أقيمت امبراطوريات، وممالك إسلامية رائعة وعظيمة ساهمت في نشر أعظم وآخر رسالات السماء المبلَّغة عن طريق نبينا محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام للخلق كافة، وبهذا الدين ارتقت تلك الممالك والامبراطوريات الإسلامية، وسجل ملوك وأباطرة تلك الدول الإسلامية أسماءهم في سجل المجد والفخار لهذه الأمة العظيمة، وبهذا الدين العظيم حمل أولئك الرجال الأبطال لواء الإسلام ليرتفع عالياً. بجهودهم في كافة أرجاء المنطقة.

وكان علماؤها بدروسهم في جامعاتها ومساجدها ومدارسها القرآنية التي كانت تعج بالآلاف من طلبة العلم وطلبة حفظ وترتيل القرآن الكريم، منارات علمية شعت ليس على المدينة وحدها ولا على ما جاورها، من مدن وقرى ونجوع وبوادي فقط، بل امتد هذا الإشعاع لينساب كما تنساب مياه نهر النيجر العظيم المجاور لها، ليصب ويصل إلى كافة أرجاء السودان الغربي والأوسط، وليهد سكان تلك المناطق الشاسعة بنور العلم والمعرفة والإيمان بالله الواحد الأحد.

كان الكتاب فيها يباع بسعر الذهب، وكان علماء المدينة يفرحون ويخرجون لملاقاة القوافل التجارية القادمة من طرابلس الغرب، ومراكش، والقاهرة، وتلمسان، لا بحثاً عما تحمله من متاع وتجارة، بل عن الكتب التي يأتي بها التجار معهم، ليعاد نسخها من جديد عشرات المرات وبخط أبناء المدينة، ولينهل من خلالها أبناء المنطقة المزيد من العلوم والمعارف في شتى مناحي الحياة.

وعلى أرض تمبكتو وفي أسواقها ومتاجرها التقى الأشقاء من كل حدب وصوب من شمال إفريقيا، ووسطها، وغربها وشرقها، وجنوبها، ليتبادلوا فيها تجارتهم في ود ومحبة وإخاء ووئام وتراحم فيما بينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، كما علمهم دينهم الإسلامي، وكما نصت على ذلك شريعتهم الغرّاء.

ومع تلك التجارة التي كان عمادها ـ الجمل وقربة الماء ـ حمل الكل وبامتنان ومحبة دين الإسلام بين ثنايا قلوبهم إلى حيث رحلوا واستقر مقامهم، وبسلوكيات أولئك التجار البسطاء عرباً وأفارقة، وبحسن معاملتهم وإعطائهم الصورة الرائعة التي جاء بها الإسلام، أوصلوا دين الخالق العظيم لبقية أشقائهم في تلك المجاهل، فدخل الناس في دين الله أفواجاً لا طمعاً في مال وجاه، وإنما في مرضاة الله الواحد الأحد، الذي جعل البشر سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين هذا وذاك، ولا لون هذا وذاك.. إلا بالتقوى.

وبسبب كل هذا.. طار صواب الغرب الصليبي الحاقد كعادته، فانطلق في مسعى محموم وبكل إمكانياته صوب هذه المدينة بالذات لينقض عليها انقضاض الكواسر والجوارح الضارية، وعندما وصل إليها في نهاية المطاف كان هدفه الأول والأساسي هو قطع صلتها بالإسلام الذي ميّز وجودها منذ اليوم الأول لها كمدينة نهضت وازدهرت في عهد الإسلام، ومحاولة قطع كل صلة لها بلغة الضاد التي أوجدت التواصل واللقاء بين الأشقاء من الشمال والجنوب، والتي قدم بها أساساً كتاب الله «القرآن الكريم».

ولم تمضي سوى سنوات قليلة على فرض الاحتلال العسكري المباشر من قبل الغزاة حتى أصبحت المدينة خرابا، فاعتراها الوهن، وغطت ساحاتها وبيوتها الرمال، بعد أن نهب الغزاة فيها كل ما وصلت إليه أيديهم.

وكان من بين أهم أهداف المستعمرين الهمج بعد فرض الاحتلال على المدينة، فرض التغريب والغربة عليها وعلى من تبقّى من سكانها وعلمائها، ومن

رفض منهم هذا الظلم حورب حتى في قوت يومه، فحرم من العمل وحرم أبناؤه حتى من تلقي العلاج والعلم في المدارس.

ولم يكتف الغزاة بكل ما فعلوه بعد فرض الاحتلال العسكري على المدينة وعلى كامل المنطقة، بل سارعوا لنهب كل ما وصل أيديهم من كتابات ومخطوطات تثبت أن للعرب والإسلام صلة بتلك المناطق، وهي كتب ومخطوطات كتبت بالخط العربي، بل أنهم سرقوا حتى رسائل الملوك والسلاطين من أبناء المنطقة وأحكام المحاكم الشرعية الإسلامية، والتي كانت كلها مكتوبة بالخط العربي.

وعلى الرغم من كل ما فعله المستعمرون منذ أن وطأت أقدامهم القذرة أرض المدينة في عام 1894 إفرنجي وعلى مدى أكثر من ستين عاماً من الاحتلال المدجج بالسلاح والمؤامرات والدسائس، فإن المدينة وبفضل رجالها المؤمنين صمدوا في وجه العاصفة العاتية، وحموا دينهم ولغتهم بين ثنايا ضلوعهم، فلم ينل المستعمرون منه شيئاً، بل أن الذي أذهل أولئك الغزاة وأطار النوم من أجفانهم، إن الدين واللغة والتي قدموا أصلاً لمحاربتهما، واصلا انتشارهما غصباً عن كل أفعالهم.

وها هي تمبكتو حتى الآن، وعلى الرغم من أن العالم كله يعرف الآن موقعها وعرف سرها وأماط اللثام عن غموضها، فإنها ما زالت في أذهان الغرب لغزاً محيراً، وغامضاً... تذكر.. فيتذكر الكل أمجادها فوراً، ويتمنى الكل الوصول إليها ولو مرة واحدة في عمره، ليتشرف بحمل اسمها على جواز سفره ليتفاخر به بين أقرانه وأصدقائه.

وفي هذا الكتاب.. رحلة تاريخية عن المدينة، منذ أن بدأت ورأت النور إلى أن عرف العالم سرها وغموضها.

وكما بدأت المدينة.. باسم الله.. نبدأ نحن أيضاً.. باسم الله.

1

قبائل الناسامونس
أول من دخل الصحراء الكبرى

كان أول مصدر تاريخي يشير إلى قيام أشخاص باختراق الصحراء الكبرى انطلاقاً من الساحل الليبي هو المؤرخ الإغريقي ـ هيريدوت ـ Herodotus عندما أشار في تاريخه الذي دونه في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد الإفرنجي إلى أن: «خمسة فتيان من قبائل ـ الناسامونس الليبية ـ Nasamons ـ» والتي كانت تعيش في خليج سرت على الساحل الليبي قاموا برحلة وسط الصحراء أوصلتهم إلى ما يعتقد الآن بأنه نهر النيجر، وعادوا من هناك سالمين. . وكانت تلك أول إشارة مدونة في التاريخ لرحلة أوصلت أصحابها إلى تلك المجاهل البعيدة، وقام بها عدد محدود من الأشخاص لاكتشاف الصحراء الكبرى وما فيها من أقوام.

أما المجموعة البشرية الثانية التي عرف عنها اتصالها بجنوب الصحراء الكبرى ووفقاً لنفس المصدر السابق، فقد كانت قبائل ـ الجرامنتيين ـ القاطنة في جنوب ليبيا والتي كان أفرادها على اتصال مباشر من خلال عرباتهم التي تجرها الثيران والخيول مع سكان مناطق السودان الأوسط والغربي قبل أن تزحف رمال الصحراء القاحلة على مناطقهم وعلى الطرق الصحراوية التي كانوا يستخدمونها، وهي الطرق التي كانت تربط عاصمة الجرامنتيين «جرمة» بنهر النيجر، حيث كانت فزان بحكم موقعها أهم طريق تاريخي بعد النيل لعبور الصحراء الكبرى باتجاه الجنوب، وكانت هذه الطرق وحتى حقب قليلة ماضية تحمل آثار تلك

العربات على صخور تلك المناطق ووديانها الجافة، وهي تصلها بكانو «شمال نيجيريا الآن» متخذة طريق ـ بورنو ـ بينما كانت هناك طرق أخرى تصلها بالمدن الواقعة على نهر النيجر مباشرة.

وقد استغنى الجرامنتيون بعد زحف الرمال على مناطقهم عن استعمال العربات والخيول، «يعتقد أن الحصان كان موجوداً في شمال إفريقيا منذ الألف الثانية قبل الميلاد الإفرنجي»، حيث ذكرت المصادر التاريخية أنه كان موجوداً في مصر عام 1800ق.م قادماً من آسيا مع «الهكسوس» الذين غزوا مصر، ويعتقد أنه دخل الشمال الليبي عام 1300ق.م، وذكر ـ هيريدوت ـ إن الجرامنتيين في فزان كانوا يستخدمون العربات التي تجرها الخيول في القرن الخامس قبل الميلاد الإفرنجي، واستمر ذلك حالهم لبضعة قرون إلى أن وصل «الجمل» الوافد الجديد إلى مناطقهم مع القبائل العربية المنطلقة من شبه جزيرة العرب باتجاه الشمال الإفريقي، في موجة أخرى من موجات تدفقهم إلى هذه المناطق قبل ظهور الإسلام.

وكانت مدينة ـ جرمة ـ مرتبطة، في نفس الوقت، بعدة طرق أخرى للقوافل المتجهة شمالاً، كانت أحداها تربطها بطرابلس «أويا» ـ OEA ـ ولبدة ـ Leptis magna ـ وصبراته ـ SABRATA ـ على الساحل الليبي، والأخرى بقرطاج بتونس، إضافة إلى طريق ثالثة كانت تربطها بمدن الساحل الليبي الشرقية عن طريق الجفرة ومرزق.

وتذكر المصادر التاريخية أن الجمل عُرف في منطقة الصحراء الواقعة جنوب ليبيا كوسيلة من وسائل المواصلات بدءاً من القرن الثالث بعد الميلاد الإفرنجي بعد أن قامت قبائل عربية بنقله معها من جزيرة العرب عبر بلاد الحبشة مروراً بالجنوب المصري والسودان، ويقول العالم الفرنسي «جوتيه» Gautier «إن الجمل عرف بكل تأكيد كحيوان للركوب في ذلك القرن» وقد اعتمد هذا العالم لتوضيح وجهة نظره هذه على ضوء النقوش الأثرية والاكتشافات الجغرافية في المنطقة.

ويضيف هذا العالم أيضاً أن ـ قربة الماء ـ قد استعملت لأول مرة في الصحراء في القرن الرابع الميلادي، وهو القرن الذي شهد أيضاً تدفق موجة جديدة من العرب القادمين من الشرق باتجاه الصحراء الكبرى.

ويقول مؤرخ فرنسي آخر هو ـ تيو دور مونود ـ Theodore monod «إنه بفضل الجمل وقربة الماء تمكن الإنسان من غزو الصحراء الكبرى» ولذلك فقد أهدى هذا العالم كتابه الذي صدر تحت عنوان «المهاريون» ـ Me'hare'es ـ «إلى الجمل سيد الصحراء والعنزة التي تعطي القربة».

وعلى الرغم من تأكيد العلماء على وجود الجمل ـ كوسيلة نقل ـ في الصحراء الكبرى منذ القرن الثالث الإفرنجي، إلا أن إشارات أخرى كانت قد وردت عن وجوده قبل ذلك الزمن بكثير، حيث ذكر أنه كان موجوداً في شمال إفريقيا، وإن كان ليس بأعداد كبيرة أثناء الحرب التي شنها قيصر روما على بعض الأجزاء الشمالية لإفريقيا في العام 46ق.م، حيث تذكر المصادر التاريخية إن القيصر عندما هزم عدوه ـ جوبا ـ الذي كان حليفاً ـ لبومبي ـ أخذ معه بعد انتهاء تلك المعركة 22 جملاً كانت من ضمن غنائم الحرب في معركة ـ تابسوس Thapsus في تونس وكان وجوده بين غنائم الحرب يومها شيئاً عجباً.

ويبدو أنه وعقب تلك الفترة ازدادت أعداد الجمال في المنطقة، حيث تذكر المصادر التاريخية إن مدينة لبدة ساهمت بأربعة آلاف جمل في حملة ضد أعدائها أثناء احتلال الرومان للسواحل الليبية بطلب من الحاكم الروماني «رومانوس Romanos في سنة 363 إفرنجي.

وتعود البداية التاريخية لاستعمال كلمة ـ الصحراء الكبرى ـ إلى حوالى العام 850 إفرنجي عندما ذكر المؤرخ العربي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الكريم القرشي المصري «829 ـ 870 إفرنجي» في كتابه ـ فتوح إفريقيا والأندلس ـ عبارة «الصحراء الكبرى» وهي كلمة استعملت لأول مرة لوصف المنطقة المعروفة الآن بهذا الاسم والتي كان ـ هيريدوت ـ قد

تحدث عنها في القرن الخامس قبل الميلاد، ولكن لم يشر إليها بهذا الاسم.

وفي القرن السادس الإفرنجي جاء ـ حسن الوزان ـ المؤرخ العربي الإفريقي الذي عرف باسم «ليون الإفريقي» Leo africanus وأطلق كلمة الصحراء الكبرى على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال أطلس وشواطىء ليبيا شمالاً حتى حدود نهر السنغال ونهر النيجر وبحر الغزال جنوباً، وهي منطقة مترامية الأطراف تزيد مساحتها على 2,300,000 ميل مربع.

ومنذ القدم، وعلى مدى التاريخ، وقبل أن تنكب القارة الإفريقية بالاستعمار الأوروبي، كانت المدن الليبية على البحر المتوسط وعبر مدن ليبية أيضاً واقعة في دواخلها مدخلاً للقارة الإفريقية، حيث كانت مدينة طرابلس الساحلية هي بوابة التوجه نحو المناطق التي عرفت باسم السودان، وقبل أن يقوم الاستعمار الأوروبي بتقسيمها إلى سودان غربي وأوسط وشرقي، وقبل أن يتم تقسيمها مرة أخرى إلى دول عديدة كما نعرفها الآن، كما تلقت أوروبا ومن خلالها بشكل خاص وبقية عواصم الشمال الإفريقي بشكل عام قبل القرن الثامن عشر الإفرنجي كافة معارفها عن دواخل إفريقيا، وبصفة خاصة عن تمبكتو ونهر النيجر.

كما كانت فزان ومرزق وغدامس وكلها مدن ليبية من أهم الطرق التاريخية التي ربطت مناطق السودان فيما وراء الصحراء الكبرى بالشمال الإفريقي، من خلال شبكة كبرى من طرق القوافل وهو أمر تنبه له الإغريق والرومان وكل الأجناس الأوروبية التي استولت على الشمال الإفريقي في فترات مختلفة، مما دفعها لربط علاقات أوثق مع القاطنين في تلك المدن.

وقد استمرت هذه المدن تؤدي دورها التاريخي في الربط التجاري والحضاري بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى على مدى عدة قرون، إلى أن جاء الإسلام فشع بنوره على كامل شمال إفريقيا، فساهمت هذه المدن في نشره لدى الأشقاء الأفارقة في السودان الأوسط والغربي بشكل خاص.

2

علاقات مشتركة منذ القدم

كانت منطقة الصحراء الكبرى معروفة على مدى التاريخ كما اتضح الآن من خلال الدراسات التاريخية والحفريات الأثرية، باختلاط الأجناس البشرية التي تعيش فيها مثل «الفولاني» Fulani وقبائل «التبو» ـ أو ـ تيدا دازا ـ - Teda Daza، وقبائل «الكانوري» Kanuri والطوارق وهي جماعات بشرية كانت وما زالت تعيش في وحدة متجانسة، وتنتقل وراء قطعان ماشيتها، بحثاً عن الكلأ والمرعى والمياه دون عوائق أو حدود على امتداد منطقة الصحراء الكبرى بكاملها.

ونتيجة لهذا الاختلاط الذي ساهمت الظروف المناخية في جعله واقعاً إجبارياً لا خيار فيه لأحد، كانت هذه الأقوام وغيرها تتنقل عبر الصحراء وعلى حافتها الجنوبية عاملة على ملاحقة سبل الحياة قرب أنهار تلك المناطق، ووجدت في انتعاش التجارة بين شمال إفريقيا ومنطقة ما وراء الصحراء الكبرى سبباً جديداً وربما أساسياً في بعض الفترات لدعم روابطها مع أقوام آخرين يعيشون في تلك المناطق، وبهذه العلاقة ضمنوا لأنفسهم سيلاً مستمراً وغير منقطع من مختلف صنوف التجارة القادمة من كلا الاتجاهين شمالاً وجنوباً، كما ضمنوا لقراهم وواحاتهم تبادل المنفعة مع مئات القوافل المارة عبرها كل عام.

وللحصول على هذه البضائع تاجرت هذه الجماعات البشرية في الملح وتبر الذهب والعاج وريش النعام والصمغ وجلود الحيوانات وعدة محاصيل زراعية سودانية أخرى، مقابل الحصول على الأقمشة والمنسوجات القطنية والمصنوعات الزجاجية والمعدنية إضافة إلى الأسلحة والبارود.

وكما طورت هذه التجارة من أسلوب حياة الجماعات البشرية المختلفة القاطنة في الصحراء الكبرى، قامت من ناحية أخرى بتطوير المدن الواقعة على الساحل الشمالي لإفريقيا مثل قرطاج في تونس وتلمسان في الجزائر، ومدن الشمال المغربي، ولبدة وصبراتة في ليبيا، إضافة إلى المدن الخمس في برقة، وهي كلها مدن ما كان لها أن تزدهر أو تتطور وتنعم بالرخاء والأبهة التي وصلت إليها، خاصة في فترة احتلال الإغريق والرومان بدون هذا التواصل، وهي أبهة ورفاهية نراها ما زالت باقية حتى اليوم فيما تخلف عنها من آثار وعمران وصلت إليه بالدرجة الأولى عن طريق التجارة مع الجماعات البشرية القاطنة فيما وراء الصحراء الكبرى.

وعلى الرغم من قلة معارفنا عن حجم تجارة المدن المذكورة مع منطقة ما وراء الصحراء في الأزمنة القديمة إلا أن الشذرات القليلة التي دوّنها الرومان وقبلهم الفينيقيون عن حجم هذه التجارة وأنواعها والنمو الذي وصلت إليه أثناء فترات ازدهارها، تعطينا فكرة ولو موجزة عما وصلت إليه هذه التجارة وما كانت عليه من ازدهار.

ولعل في إشارات مؤرخي الرومان في القرون الأولى للميلادالإفرنجي عن اضطراب طرق التجارة الداخلية مع الصحراء الكبرى أثناء الفترة التي استفحل فيها الخلاف والصراع بين الجرامنتيين القاطنين في فزان، والرومان المحتلين للمدن الساحلية الرئيسية شمال ليبيا، وتأثر هذه المدن نتيجة لهذا الصراع بشكل كاد أن يوقف الحياة فيها بشكل تام، لعل في ذلك إشارة واضحة على مدى ما كانت تشكله هذه التجارة بالنسبة لتلك المدن.

وتذكر تلك المصادر أن الرومان وبعد أن أصبحت الحياة في المدن التي أقاموها على الساحل مهددة فعلاً بالتوقف والنمو بعد توقف قبائل الجرامنت الليبية عن تزويدها بمختلف أنواع تجارة السودان الغربي عقب الحرب الطويلة التي استمرت قرناً بين الطرفين، والتي تمكن خلالها الجرامنتيون من نقل ميدان الحرب سنة 70«ق» إلى أبواب لبدة وأويا «طرابلس» اضطروا لعقد الصلح والتحالف مع تلك القبائل القوية، لدرجة أن القائد الروماني «سبتموس فلاكوس» Septimus flaccus توجه للجنوب الليبي في العام 90 إفرنجي، ومن جرمة Garama اتجه جنوباً ليلتحق بملك الجرامنتيين الذي كان قد خرج على رأس حملة لتأمين طرق القوافل الرابطة بين جرمة ونهر النيجر، وهي الطرق التي اضطربت ظروفها الأمنية بعد التوقف الطويل الذي مرَّ منذ أن توقف مرور القوافل عبرها، ويذكر المؤرخ الروماني «مانينوس التايري» Maninos of tyre إن هذه العملية المشتركة استغرقت أربعة أشهر وصلت في أثنائها إلى بلدة «أجيسمبا» Agisymba حيث شاهدوا هناك حيوان الخرتيت.

ومرت عدة قرون عقب ذلك لم نسمع فيها شيئاً عن تلك التجارة، امتدت منذ انتهاء فترة حكم الرومان ووصول نور الإسلام إلى منطقة شمال إفريقيا، وحتى نهايات القرن الخامس عشر الإفرنجي، وهي فترة نستطيع أن نخمن أنه وأثناءها كانت المنطقة كلها تتعامل مع الدين الجديد الوافد إليها من شبه جزيرة العرب، بهدوء وبتواصل بعد أن وجدت المنطقة كلها فيه خير سند لدعم أواصر العلاقة بين الأقوام البشرية القاطنة في شمال إفريقيا ومنطقة غرب ووسط السودان، وهو سند ربط هذه الأقوام بوشائج أساسها الاحترام المتبادل وجامعها الأساسي الاشتراك في حب وتوحيد الله الواحد الأحد، والامتثال لأوامره ونواهيه التي جاءت في القرآن الكريم وعلى لسان خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وإضافة إلى استمرار قوافل العرب والأفارقة في مواصلة التبادل التجاري بينها على مدى هذه القرون، التي كانت المنطقة كلها تشهد فيها دخول الإسلام

وتدعيم أركانه بين الأقوام القاطنة فيها، حمل التجار العرب المنطلقين من الشمال الإفريقي مع تجارتهم في هذه الفترة دين الإسلام بين ثنايا قلوبهم عاملين على نشره بين أشقائهم في منطقة ما وراء الصحراء الكبرى بالحكمة والموعظة الحسنة. وهو أمر تلقاه أولئك الأشقاء بقلوب مفتوحة عامرة بالإيمان، فحملوه بين جوانحهم وواصلوا نشره بين بقية سكان المناطق المجاورة لهم حتى عم نوره كافة الأرجاء.

وبهذا الدين الجديد قامت ممالك وسلطنات إسلامية عظيمة في العديد من مناطق السودان الغربي والأوسط، كان أشهرها مملكة غانا، ثم مملكة مالي، ثم مملكة السنغاي، وهي ممالك عملت بكل جهدها بنور الإيمان الذي عمر قلوب القائمين عليها على نشر دين التوحيد الختامي بين القبائل والأقوام الوثنية في تلك المناطق، وبه نشأت مدن وقرى ورباطات إسلامية جديدة اتخذت من الإسلام دليلاً وطريقاً، وبه ازدهرت وأصبحت تعرف، وهي مدن وقرى ورباطات ما زالت تؤدي دورها حتى الآن في التبشير بدين الله الختامي، وما زال أحفداد الامبراطوريات الإسلامية العظيمة في تلك المناطق يواصلون نفس مهمة أجدادهم في تبليغ بقية خلق الله بنور الإسلام العظيم بالحكمة والموعظة الحسنة.

3

الإسلام يتوغل جنوباً

بدخول الإسلام إلى منطقة الشمال الإفريقي منذ السنوات الأولى للهجرة، كان لا بد أن يمتد هذا النور الذي بشر به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد اللّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ للبشر كافة شرقاً وغرباً، أن يعم نوره كافة الأرجاء على وجه الأرض ليبشر الناس كافة بأن الخالق عز وجل واحد أحد، وأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه عز وجل لكافة خلقه، وإن هذا الدين لا يفرّق بين خلق الله لا في ألوانهم ولا في أجناسهم ولا في مكاناتهم الاجتماعية أو السياسية، فالكل، وفقاً له، عباد لله الواحد الأحد، لا فرق بينهم في منزلتهم لدى الله سبحانه وتعالى إلا بما قدمت أيديهم من أفعال وما التزمت به قلوبهم وضمائرهم من طاعة للّه تعالى.

ومن هنا.. وعندما وصل الإسلام إلى منطقة الشمال الإفريقي على أيدي قادته الأوائل ممن حملوا نوره العظيم إلى هذه الأرجاء، كان من الطبيعي أن يعمل أولئك القادة بالتآزر مع أشقائهم ممن هداهم الله لنور الإيمان من أبناء المنطقة على إيصال هذا النور إلى كافة الأرجاء، فانطلقت جحافل المسلمين رافعين علم التوحيد باتجاه الجنوب الليبي، البوابة الأولى باتجاه السودان الأوسط والغربي، للعمل على نشر الإسلام في ربوع تلك الديار.

وهكذا انطلقت طلائع المسلمين بقيادة المجاهد الكبير عقبة بن نافع الفهري في العام 666 إفرنجي باتجاه الجنوب، فوصل إلى ودان على رأس قوة مكونة من 400 فارس و800 قربة ماء، وعندما وصل إلى فزان واهتدى أهلها للإسلام سألهم «هل من ورائكم أحد؟» فأجابوه: نعم «كاوار» Khawar، فتوجه إليهم بقواته وبعد مسير خمسة عشر يوماً وصل عقبة إلى عاصمتهم التي وجدها قلعة حصينة على رأس جبل، فاقتحمها، وعاد عقبة إلى ـ زويلة ـ بالجنوب الليبي، وأرسل أحد قادته إلى ـ غدامس ـ لافتتاحها، وتذكر المصادر التاريخية إنه ومنذ ذلك الوقت تم افتتاح طريق جديد يربط ـ زويلة ـ بكانم وبورنو ـ مروراً ببحيرة تشاد، وأصبح هذا الطريق منذ ذلك الوقت أشهر طريق يربط فزان بدواخل تشاد على مدى عدة قرون، ومنذ تلك الفترة أصبح للإسلام وجود في كانم، وكاوار، وبورنو، بعد أن اهتدى أهالي تلك المناطق للإسلام.

وشيئاً فشيئاً.. بدأ الدين الجديد يدعم مواقعه بين أبناء المنطقة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبدأ المهتدون لنور الإسلام ومن خلال ممارساتهم وأفعالهم التي طبعتها معاملات المسلمين، بدأ أشقاؤهم من أبناء المنطقة يتطلعون إلى ماهية هذا الدين الجديد، الذي ساوى بين البشر وجعل المرجعية لله وحده الذي يتوجه إليه المهتدون خمس مرات في اليوم خاشعين بقلوبهم وعقولهم له وحده.. جل شأنه.

وعلى مدى القرون التالية وطد الإسلام وجوده وانتشر في كافة المناطق المجاورة وازدادت أعداد المعتنقين له والحاملين للوائه في كافة الأرجاء، غير أنه لم يصبح بعد ديناً رسمياً للممالك والسلطنات المحلية المقامة في تلك المناطق إلا في بداية القرن العاشر الإفرنجي.

فالمعروف الآن أن قيام حكم إسلامي متكامل في كانو/ بورنو، وعلى الرغم من دخول الإسلام لتلك المنطقة منذ القرن السابع الإفرنجي، لم يصبح حقيقة ملموسة بشكل واضح وجلي إلا في القرن الحادي عشر الإفرنجي، عندما

هدى الله أحد ملوك المنطقة للإسلام وهو ـ الماي هيوم جلبي ـ على يد رجل يدعى «محمد بن ماني» وفي القرن التالي بدأ بعض حكام هذه الدولة في التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج مما أتاح لحكام بورنو وكانم تكوين صلات وعلاقات فكرية وثقافية أوسع مع أشقائهم في شمال إفريقيا وخاصة في عهد ـ الماي دوناما دابالمي ـ الذي خلفه في الحكم، والذي أقام علاقات ثقافية وسياسية متينة مع حكام طرابلس ومصر اللتين مر عليهما مع الوفد المرافق له أثناء رحلة الحج ذهاباً وعودة، وقد أسفرت هذه العلاقات المتنامية بين المسلمين في الشمال والجنوب عن تأسيس مدرسة لتعليم علوم القرآن واللغة العربية في مصر عرفت باسم «مدرسة ابن رشيق» تم الاتفاق بين الطرفين على أن يتم فيها تعليم الطلبة القادمين من وسط السودان علوم الدين والفقه الإسلامي.

ويقول ـ المقريزي ـ عن هذه المدرسة أن طائفة من أهالي التكرور وأهل كانم هم الذين دفعوا تكاليف بنائها في «حي حمام الريش بالقاهرة» عندما قاموا بزيارة مصر في عام 640هـ الموافق 1242 إفرنجي أثناء مرورهم لأداء فريضة الحج، وكان أول من قام بالتدريس فيها عالم دين مصري يدعى «القاضي علم الدين بن رشيق» ومنه اتخذت المدرسة اسمها وعرفت به.

وكان أهل السودان الأوسط يرسلون الأموال لتلك المدرسة كل عام في ميعادها مع قوافل الحجيج للصرف منها على شؤون الطلبة الذين يتلقون تعليمهم فيها والإنفاق منها على إيوائهم في فندق خصص لهم وسط القاهرة.

وبالإضافة إلى هذا الاهتمام الواسع بتلقي العلوم الإسلامية من مصادرها، اهتم حكام المنطقة بتعليم العلوم الدينية وإنشاء المدارس والتوسع فيها داخل مناطقهم نفسها، وكانوا يطلبون العلماء والفقهاء في الدين الإسلامي من طرابلس وجامع القرويين بفاس وجامع القيروان بتونس والأزهر بمصر.

وقد لعبت الطرق التجارية وسط الصحراء ـ والتي كانت تتنقل عبرها قوافل الإبل ـ دوراً هاماً في توطيد أركان الإسلام وتسهيل مهمة الأجداد الذين

تولوا نشره بين أشقائهم في منطقة ما وراء الصحراء الكبرى، وكان لهذه الطرق الرابطة بين مدن الشمال الإفريقي ومدن السودان الغربي والأوسط بالغ الأثر في تدعيم أواصر التواصل بين الأشقاء شمالاً وجنوباً، حيث أضاف التجار المتنقلون خلف تجارتهم وإبلهم بالإضافة إلى مهمتهم الأولى التقليدية في البيع والشراء مهمة جديدة هي نشر الإسلام بين أشقائهم فيما وراء الصحراء الكبرى، وإعطاء أروع الأمثلة في مدى التغيير الذي طرأ على معاملاتهم وسلوكهم بعد اعتناقهم لدين الإسلام، وهو أمر لا شك أن أهل السودان لاحظوه بسهولة وتأثروا به فوراً مما انعكس بالتالي على سلوكهم هم أيضاً وأصبح يميز حياتهم كلها بعد ذلك.

4

الإسلام يصمد ويواصل انتشاره

بعد أن استتب الإسلام في منطقة كانم ـ بورنو ـ في السودان الأوسط، كان لا بد أن يعمل المؤمنون به من أبناء المنطقة على التوسع في نشره باتجاه المزيد من المناطق المجاورة لإدخال وهداية المزيد من الأشقاء لنوره العظيم، وحتى تعم كلمة التوحيد العظمى كافة الأرجاء وهكذا.. انصبت جهود كلا الطرفين على مواصلة التوسع في نشر دين الله وخاصة في الفترة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر الإفرنجي، بعد الزيارات التي قام بها للمنطقة عدد من علماء وفقهاء الإسلام القادمين من توات وطرابلس الغرب ومصر.

وكما تدفق علماء وفقهاء الدين الإسلامي القادمين من الشمال الإفريقي على المنطقة، تدفقت الكتب والمراجع الإسلامية عليها بكثافة، مما أوجد حركة فكرية إسلامية واسعة النطاق في كامل المنطقة، وهي كتب كانت تنسخ بأيدي أبناء المنطقة أنفسهم ويتم تداولها بينهم على نطاق واسع، وهو أمر ترتب عليه نبوغ عدد من أبناء المنطقة في شتى علوم الدين والفقه والبلاغة والنحو مما أسهم في إثراء معارف أهالي المنطقة.

وهكذا واصل الإسلام انتشاره وبواسطة أبناء المنطقة أنفسهم مستعينين بعدد من أشقائهم من العلماء والفقهاء الذين كانوا يفدون إليهم بين الحين والآخر

من الشمال الإفريقي، وقد تأثرت هذه المناطق بشكل كبير بأفكار عدد من الدعاة المسلمين وعلى رأسهم الداعية الإسلامي الكبير «محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني» الذي كانت لأفكاره الإسلامية وحركته أثر بالغ على ممالك بلاد الهوسا وحكام كانو، وكاتسينا، كما تأثرت المنطقة بأفكار العالم والفقيه المصري الشيخ جلال الدين السيوطي الذي عاش في الفترة من 1445 إلى 1505 إفرنجي والذي كانت له علاقات وطيدة مع العديد من حكام وعلماء وفقهاء بلاد السودان الغربي والأوسط بسبب ترددهم عليه في القاهرة أثناء مواسم الحج، وكان حكام هذه المناطق يستشيرونه في العديد من أمور الدين والحكم والشريعة.

ونتيجة لهذا التفاعل الفكري والإسلامي المتنامي برز عدد من علماء المنطقة في شتى علوم الدين والتاريخ والفقه، كان من بينهم الشيخ ـ محمد كرعك ـ و ـ محمد بن محمد الكاتسيناوي ـ نسبة إلى مدينة ـ كاتسينا ـ والمتوفي عام 1741 إفرنجي والعالم ـ عثمان بن محمد بن فودي ـ المتوفي عام 1817 إفرنجي، والشيخ العالم ـ عبد اللّه بن فودي ـ المتوفي عام 1829 إفرنجي، والذي ألف وحده أكثر من مائة كتاب ومخطوط، وهو شقيق للشيخ عثمان، ونجله ـ محمد بللو ـ المتوفى في عام 1837 إفرنجي، والذي ألف أكثر من 200 كتاب في شتى علوم الدين والتاريخ، والفقه، والبلاغة، و ـ أحمد البكائي أبو دمع ـ من أهل تمبكتو المتوفى عام 1515 إفرنجي ـ والشيخ محمد الأمين الكانمي ـ، والحاج ـ عمر بن إدريس ـ، والشيخ ـ المختار الكنسي الكبير ـ. وعشرات آخرين من العلماء والفقهاء غيرهم وخاصة في مدينة تمبكتو كما سنرى فيما بعد..

وبالنسبة لمنطقة السودان الغربي، كان الإسلام قد وصل إلى تلك المناطق في وقت مبكر، ومنذ أيام امبراطورية غانا، وحتى قبل أن تدخلها قوات المرابطين القادمة من المغرب عام 1057 إفرنجي، حيث تذكر المصادر التاريخية

أنه كان بعاصمة هذه الامبراطورية ـ كومبي صالح ـ العديد من المساجد الخاصة بالمسلمين، كما حظي الإسلام بدعم واسع النطاق في عهد امبراطورية مالي أواخر القرن الثالث عشر الإفرنجي، والتي كانت من أنشط الممالك الإسلامية في تبليغ دين الإسلام لتلك المناطق، وسخّرت التجارة التي كانت تسيطر عليها لخدمة الإسلام، ونتيجة لجهودها انتشر الإسلام «حتى وصل سيراليون وساحل العاج وساحل الذهب» وقد وصف المؤرخ والرحالة العربي ـ ابن بطوطة ـ الذي زار المنطقة في القرن الثالث عشر الإفرنجي حالة المسلمين أيام تلك الامبراطورية بقوله: «إذا لم يسرع المصلي يوم الجمعة إلى المسجد مبكراً، فلا يجد له مكاناً لكثرة الزحام».

وقد حصل الإسلام بعون الله تعالى على دعم كبير أيام ملوك امبراطورية مالي وخاصة في عهد الملك ـ منسى موسى «كما سنرى فيا بعد» ثم تدعمت أركان الإسلام بشكل أكثر وضوحاً وتدعمت أساسياته في عهد امبراطورية السنغاي وخاصة في عهد ملوكها «الأسكيين» حيث حظي الإسلام في أيام تلك الدولة وبعد اهتداء ملوكها لدين الله بإشعاع عم المنطقة كلها، وتولى رجال تلك الامبراطورية الإسلامية نشره في كافة الأرجاء الخاضعة لحكمهم.

ولم تمض سوى حقب قليلة حتى امتد نور الإسلام إلى مدينة ـ جنة ـ أو «جني» كما تعرف الآن بمالي، والتي تم إنشاؤها عام 1043 إفرنجي فاعتنق ملكها ـ كنبرو ـ الدين الجديد، وقام بإعلان تركه لحياة الترف واللهو الزائلة، فهدم قصره وبنى على أنقاضه مسجداً، وهو أمر أدى إلى اعتناق أهالي دولته الإسلام، وأدى ذلك إلى انتشار دين الله في كامل أنحاء مالي ونيجيريا الحالية، كما حملت نور الإسلام العديد من قبائل المنطقة التي هداها الله لهذا النور العظيم، مثل قبائل «البولا» و«الفولانيين» و«الهوسا»، و«التكرور»، وغيرها والتي قامت بدورها بحمل لواء الدين الإسلامي، عاملة على نشره في شتى أنحاء غرب إفريقيا.

كما حمل راية الإسلام بعدهم أقطاب الحركات الصوفية من أبناء المنطقة الذين نقلوا نور الإسلام بين ثنايا قلوبهم وواصلوا نشره بين بني قومهم مضطلعين في نفس الوقت بمحاربة بقايا الوثنيين عاملين بجهودهم الذاتية وبإمكانياتهم البسيطة على تبيان حقيقة دين التوحيد، باذلين كل جهدهم لتوضيح ما استعصى فهمه لدى أشقائهم.

وفي القرن التاسع عشر أضيفت مهمة أخرى أمام أقطاب الحركات الصوفية في غرب إفريقيا ووسطها، عندما تدفقت جيوش المستعمرين الأوروبيين على المنطقة وعلى كامل أجزاء إفريقيا لتنهب خيراتها وثرواتها، ولتحكم بالحديد والنار سكانها، فارضة عليهم دينها وثقافتها ولغتها.. وعلى الرغم من جسامة ما واجهه أولئك المجاهدون من بطش وملاحقة وحروب طالت أسرهم وأهلهم، إلا أنهم صمدوا في وجه أولئك الغزاة، ولم تهن من عزائمهم أسلحتهم المدمرة، ولا بطشهم الذي طال الأخضر واليابس، بل إن أولئك المجاهدين رأوا في تلك المحن والخطوب التي ألمت بهم، امتحاناً من الخالق عز وجل لمعرفة مدى صدقهم وثباتهم في التمسك بعقيدتهم والدفاع عنها، وهم لذلك صمموا على النجاح في ذلك الامتحان على الرغم من فداحة الثمن الذي دفعه الآلاف منهم، ممن حصدتهم آلة الحرب المدمرة التي جلبها المستعمرون معهم أثناء استحواذهم على المنطقة.

وفعلاً صمد المجاهدون والمؤمنون، وصمد الإسلام في قلوبهم وحمل راياته العظيمة الأبناء والأحفاد حتى غطى نوره كامل المنطقة وما زال يفعل حتى الآن.

5

تمبكتو... الأسطورة الغامضة

شهدت الصحراء الكبرى في نهايات القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر اهتماماً كبيراً من قبل الأوروبيين، وقد تصدرت إنجلترا وفرنسا سائر الدول الأوروبية في الاهتمام بهذه المنطقة، وكان صراع الدولتين قد عكسته بوضوح تصرفات وأعمال قناصلة هاتين الدولتين في مدن الشمال الإفريقي وخاصة في طرابلس.

وكان هذا الصراع والتنافس يستهدف بشكل رئيسي معرفة كل الأسرار المتعلقة بدواخل الصحراء الكبرى ومدنها، وبالذات معرفة الطرق المؤدية إلى المدن التي خلبت عقول الأوروبيين، وعلى رأسها دون منازع مدينة ـ تمبكتو ـ التي كانت بالنسبة لهم ـ خرافة ـ لا أحد منهم يستطيع أن يحدد مكانها بوضوح، ولا أحد استطاع أن يعرف أسرارها وغموضها، وهم لذلك أطلقوا عليها في تلك الفترة العديد من الأسماء مثل ـ المدينة الغامضة ـ و ـ المدينة الخرافية ـ وأخيراً استقروا على تسميتها باسم «مدينة الذهب» City fo gold.

ومن هنا. . كان هدف الأوروبيين بصفة عامة والإنجليز والفرنسيين بصفة خاصة هو محاولة الوصول إلى هذه المدينة الأسطورة وسط الصحراء ـ تمبكتو ـ خاصة بعد أن اعتقدوا بأنه ومن خلال السيطرة على تلك المدينة سيتمكنون من

السيطرة على الصحراء بكاملها وعلى كافة المنافذ والطرق المؤدية إليها، والتي تربطها بالعالم الخارجي، إضافة إلى عشرات الواحات المنتشرة فيها.

في تلك الفترة التي بدأ فيها التفكير الأوروبي في التكالب على الصحراء الكبرى، كانت أوروبا قد انتهت تواً من مرحلة تصدير الرقيق الإفريقي باتجاه الأمريكتين، وهي العملية التي أدت إلى نقل قرابة العشرين مليون مواطن أفريقي من أراضيهم وانتزعوا من أحضان أهلهم غصباً عن إرادتهم تحت تهديد السلاح والقتل العشوائي دون رحمة أو شفقة، وفقدان أكثر من هذا العدد نتيجة انعدام وسائل النقل المناسبة والسجون القذرة، إضافة إلى تفشي الأوبئة والأمراض الفتاكة التي أتت مع أولئك الغزاة، والتي أصيب بها أولئك التعساء أثناء السفر عبر المحيط الأطلسي.

وقد أدى هذا الاستيقاظ الاستعماري في أوروبا إلى قيام فرنسا باحتلال الجزائر عام 1830 إفرنجي إضافة إلى قيامها مع غيرها من الدول الأوروبية باحتلال أجزاء أخرى على السواحل الإفريقية، قبل وبعد هذا التاريخ، وبمجرد وضع الفرنسيين لأقدامهم على سواحل الجزائر بدأ تفكير الفرنسيين في كيفية التوسع جنوباً باتجاه الصحراء الكبرى للاستحواذ على طرق تجارة القوافل والوصول إلى المناطق الرئيسية في السودان الغربي، وعلى رأس تلك المناطق مدينة ـ تمبكتو ـ ولهذا السبب اشتد صراع الدولتين الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا على من يصل أولاً لتحقيق هذا الهدف.

قبل هذه الفترة بقليل، تأسس في لندن عام 1788 إفرنجي تجمع كوّنه بعض علماء وتجار إنجلترا أطلقوا عليه اسم «رابطة النهوض بكشف الأجزاء الداخلية من إفريقيا» وكان هدف هذه الرابطة في البداية، وكما هو واضح من تسميتها تطوير الكشوفات الجغرافية عن دواخل إفريقيا، التي لم يكن أحد في أوروبا يعرف عنها شيئاً، باستثناء ما نقله عنها بعض الرحالة والعلماء الجغرافيين العرب مثل ابن بطوطة الذي عبر الصحراء الكبرى في القرن الثالث عشر

الإفرنجي وزار تمبكتو وأجزاء عديدة من السودان الغربي، وحسن الوزان، والسعدي، وابن خلدون، والبكري، والإدريسي، وابن حوقل، وقد استمرت هذه الجمعية تمارس عملها في جمع المعلومات التي كان يحصل عليها القناصل الإنجليز في مدن الشمال الإفريقي عن دواخل الصحراء الكبرى، وما يأتي منها من تجارة، إلى أن تم إدماجها في عام 1831 إفرنجي مع «الجمعية الجغرافية الملكية» في لندن التي كانت قد تأسست بصفة مستقلة قبل ذلك بعام واحد، بعد أن ارتأت الحكومة الإنجليزية ضرورة إخضاع عمل هذه الجمعية وتوظيفها في عمل وزارة المستعمرات الإنجليزية، بعد أن استقر رأي ساسة إنجلترا في تلك الفترة على بدء التمهيد الفعلي لفرض الاحتلال العسكري المباشر على العديد من مناطق إفريقيا وهو الأمر الذي تم فيما بعد.

وفي هذه الفترة وقبل انقضاء القرن الثامن عشر، تمكنت «الرابطة الإفريقية» بلندن من الاتصال برجل عربي يدعى «الحاج عبد السلام شعبيني» من أهالي تطوان بالمغرب، وكان يعيش يومها في لندن، وكان هذا العربي قد زار تمبكتو مع والده حوالى العام 1787 إفرنجي كما زار ليبيا صحبة قافلة تجارية، وقدم هذا العربي معلومات وافية عن تلك الزيارات لتلك الرابطة والتي كان من بينها، أن تمبكتو هي من أغنى مدن السودان الغربي، وأن أهلها يتعاملون بالذهب في كافة معاملاتهم التجارية، وأن المدينة يحيط بها سور عظيم به ثلاثة أبواب، الباب الأول وهو «باب الصحراء» وموقعه شمال المدينة، وهو يؤدي إلى الصحراء الكبرى و«باب النيل» ويقع جنوب المدينة وهو يؤدي إلى نهر النيجر، أما الباب الثالث فهو «باب القبلة» الواقع شرق المدينة باتجاه مكة المكرمة.

ويقال أن هذه الرابطة تمكنت من الحصول على معلومات متتابعة عن وسط الصحراء الكبرى وتمبكتو من رجل مغربي آخر يدعى «ابن علي» كان هو أيضاً في لندن في تلك الفترة «1790 ـ 1793 إفرنجي» وهي معلومات ضاعفت من اهتمام هذه الرابطة والمسؤولين الإنجليز بشكل عام، وأدت إلى حثهم على

مواصلة العمل بشكل أكبر بهدف اختراق الصحراء والوصول إلى العاصمة الغامضة ـ تمبكتو ـ وبقية مدن السودان كما كان يعرف يومها.

وضاعف من هذا الاهتمام الإنجليزي بمناطق الصحراء الكبرى ما كان يرسله قناصلة أوروبا في طرابلس وتونس والجزائر ومراكش من معلومات عن السودان الغربي، وتجارة القوافل وكميات الذهب الذي تأتي به قوافل التجار العرب للشمال الإفريقي من تلك المنطقة.

وهكذا.. أصبحت تمبكتو هدفاً حقيقياً للرابطة اللندنية، والتي رأى المسؤولون عنها، أن الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة عنها هي آرسال رحالة أوروبيين إليها مباشرة لاستكشاف الغموض المحيط بها من جهة، ومن جهة أخرى معرفة موقعها تحديداً على الخارطة الإفريقية، إضافة إلى معرفة الطرق المؤدية إليها، ونوعية التجارة فيها، وبشكل خاص حقيقة تبر الذهب القادم منها.

وهكذا خرج الرحالة الأوروبيون من بلادهم للبحث عن تمبكتو، وحاولوا في البداية الوصول إليها من عدة جهات بشمال إفريقيا وساحلها الغربي، غير أنهم وبعد الفشل الذي صادفهم من هناك نتيجة بعد الطريق ومخاطر التعرض للأمراض التي لم يكن أولئك الرحالة يعرفون عنها الكثير مثل ـ الملاريا ـ و ـ الدوزنتاريا ـ وغيرها... استقر رأيهم في نهاية المطاف على محاولة الوصول إليها عن طريق طرابلس بالذات بسبب قرب المسافة بينها وبين وسط وغرب إفريقيا من جهة، وبسبب الأمن والأمان المتوفر على طرق القوافل القادمة إليها والمتوجهة منها باتجاه الجنوب، وندرة الأمراض الفتاكة التي صادفت بعضاً من أولئك الرحالة على سواحل غرب إفريقيا من جهة ثانية.

6

بــدء أفول طرق القوافل

كان اتصال مدينة طرابلس الغرب بعاصمة الصحراء الكبرى «تمبكتو» وبقية مناطق غرب إفريقيا يتم عن طريق واحة غدامس بشكل خاص، وفزان ومرزق بالنسبة لبقية مناطق السودان الأوسط، حيث كانت القوافل التجارية تتخذ طريقها انطلاقاً من طرابلس ثم غدامس ومنها إلى عين صالح وتوات بالجنوب الجزائري ثم إلى تمبكتو، وهي قوافل تذكر المصادر التاريخية أنها كانت على نوعين: الأولى وتتكون من 100 إلى 150 جملاً، وهي القوافل الصغيرة، أما القوافل الكبيرة فيتعدى عدد الجمال فيها ليصل إلى ألفي جمل وقد تصل إلى ضعف هذا العدد في الرحلة الواحدة.

وبالنسبة للقوافل التجارية القادمة إلى تمبكتو من المغرب عبر مراكش ـ تافيلات ـ فإن عدد الجمال فيها يصل في بعض الأحيان إلى عشرة آلاف جمل في الرحلة الواحدة، وهناك تقارير عديدة كتبها قناصلة أوروبا في مراكش عن مشاهدتهم لقوافل يصل فيها عدد الجمال المحملة بالبضائع إلى أكثر من مثل هذا العدد.

وكل هذه القوافل كانت تصل إلى تمبكتو في الفترة بين شهري الكانون «ديسمبر» واي النار «يناير» من كل عام وتغادرها بين شهري ناصر «يوليو»

و«هانيبال» «أغسطس» من نفس العام، وهي فترة يبدو أن تجار تلك القوافل قد اختاروها بدقة، حيث تقل درجة الحرارة نهاراً وسط الصحراء في نهاية العام لدى المغادرة من الشمال الإفريقي، ثم العودة بعد منتصف العام وقبل أن تشتد درجة الحرارة في الصحراء القاحلة، التي عليهم قطعها للعودة بتجارتهم.

وتقول المصادر التاريخية إن الجمال التي تصل تمبكتو من مختلف الجهات كل عام تصل أعدادها ما بين 50 إلى 60 ألف جمل، وقد انخفض هذا الرقم بشدة بعد احتلال فرنسا للمنطقة، ليصل عددها في أول سنة من الاحتلال إلى حوالى 14 ألف جمل فقط. ثم انخفض العدد تدريجياً إلى ان كاد ينقطع نهائياً في بداية القرن العشرين.

وكانت مدينة تمبكتو بحكم موقعها على حافة الصحراء الكبرى الجنوبية وعلى ضفاف نهر النيجر، تنطلق منها وتأتي إليها التجارة من الشمال والجنوب على حد سواء، حيث أنها كانت مركزاً للتبادل التجاري ومنطقة تخزين رئيسية لمختلف أنواع البضائع، وكان التجار يستخدمون الإبل في نقل أو استجلاب التجارة من الشمال، بينما يستخدمون القوارب لنقلها أو جلبها باتجاه أرض الجنوب عبر نهر النيجر، وكان الاتفاق والتعاقد على تبادل التجارة يتم داخل المدينة بين التجار القادمين من الشمال وأولئك القادمين من بقية مناطق السودان الغربي أو الأوسط عن طريق وسطاء التجارة من أهل المدينة نفسها.

ويعرف الآن بشكل قاطع أن أهالي تمبكتو من التجار اشتهروا ـ على مدى تاريخ ازدهار المدينة التي انبثقت كالزهرة على حافة الصحراء القاحلة، وأصبحت شهرتها تطبق الآفاق ـ باستضافة التجار القادمين إليها من أية جهة لمدة ثلاثة أيام متوالية، يحظى فيها الضيف بكل متطلبات الضيافة، وبعدها يحق للضيف أن ينتقل إلى دار أخرى للإقامة فيها بقية الأيام التي سيقضيها في المدينة، وعادة ما تكون الدار الجديدة ملكاً للتاجر المضيف، وهي عادة عربية أصيلة ما زال أهل تمبكتو يطبقونها حتى الآن، ويشاركهم فيها أغلب أهالي منطقة غرب إفريقيا من المسلمين.

وبعد انتقال الضيف إلى داره الجديدة يتولى مضيفه التاجر تزويده بالأسعار اليومية وأنواع البضائع المتوفرة في السوق، أو تلك التي تم التعاقد عليها ومن المنتظر وصولها قبل موعد رحيل التاجر عائداً إلى بلاده.

ويذكر مؤلف كتاب «تمبكتو الغامضة Timbuctoo Mysterious فليكس دوبوا Dubois felix والذي قام بزيارة المدينة في نهاية القرن التاسع عشر الإفرنجي، إن حياً بكامله داخل المدينة كان يترأسه التجار القادمون من طرابلس. كما أن حياً بكامله بالمدينة كان معروفاً باسم «حي الغدامسية» نسبة إلى مدينة غدامس.

وقد بلغت تجارة القوافل ذروة ازدهارها في الفترة من عام 1490 إلى عام 1590 إفرنجي وهي الفترة التي ازدهرت فيها امبراطورية السنغاي في منطقة السودان الغربي، وامبراطورية بورنو في السودان الأوسط، حيث تمكنت الامبراطوريتان الإسلاميتان من بسط نفوذهما على منطقة الصحراء الكبرى، وهو نفوذ تبعه بالتالي فرض النظام بصورة صارمة على كامل طرق تجارة القوافل مما هيأ أحسن الظروف لازدهار حركة التجارة ونموها.

وتذكر المصادر التاريخية أن أربعة من أصل خمسة طرق لتجارة القوافل كانت تصل ليبيا بمنطقة ما وراء الصحراء الكبرى حتى نهاية القرن التاسع عشر وهي طرق:

غدامس ـ إير ـ كانو ـ «بنيجيريا حالياً».

طرابلس ـ غدامس ـ تمبكتو ـ «بمالي حالياً».

طرابلس ـ فزان ـ بورنو ـ كانم ـ «بتشاد حالياً».

برقة ـ الكفرة ـ واداي ـ «بتشاد حالياً».

أما الطريق الخامس فهو الذي يربط مراكش بتمبكتو عن طريق «توات»، وتذكر «مجلة التاريخ الإفريقي» اللندنية في عددها الصادر بتاريخ 2/ 11/ 1962

إفرنجي إن طريق القوافل الخامس الرابط بين تمبكتو والمغرب تعرض بعد العام 1590 إفرنجي للفوضى واختلال الأمن بعد انهيار امبراطورية السنغاي الإسلامية عندما نجحت جيوش سلطان مراكش «أحمد المنصور السعدي» في الاستيلاء على مناطق نفوذ تلك الامبراطورية والسيطرة على عاصمة الصحراء تمبكتو، وهو أمر أدى إلى حدوث فوضى واسعة على طرق تجارة القوافل العابرة لتلك الجهة ضاعف من تداعياتها صراع قبائل الطوارق، والفولاني، والبامبارا، التي حاولت كل منها الاستفادة من الظروف المستجدة وفرض سيطرتها على تلك الطرق، مما أوجد حروباً متقطعة فيما بينها تأثرت بها طرق القوافل المتجهة أو القادمة عبر ذلك الطريق، باستثناء القوافل الكبرى التي كان يصاحبها عدد كبير من الحراس، وقد حلّت نفس المشكلة بطريق بورنو «فزان» طرابلس. الذي بدأ يفقد أهميته بالتدريج في نهايات القرن التاسع عشر، ولم يتبق سوى طريق كانو ـ إير ـ غدامس ـ الذي حافظ على مكانته بسبب الأمن والسلامة للعابرين منه حتى بالنسبة للقوافل الصغيرة طيلة العام، بينما استمر طريق ـ برقة ـ الكفرة ـ واداي ـ على مكانته حتى الربع الأول من القرن الماضي.

وقد ضاعف من عوامل إنهاء تجارة القوافل والقضاء على طرقها المعتادة في نهاية القرن التاسع عشر تمكن الإنجليز والفرنسيين من احتلال أنهار النيجر، والسنغال وكافة المناطق المجاورة لتلك الأنهار، واستحواذ تلك الدول الاستعمارية على تجارة السودان الغربي والأوسط، وتحويلها للتسويق عبر السواحل الغربية لإفريقيا ومن على موانيء المحيط الأطلسي.

7

مكاسب هائلة من تجارة القوافل

منذ البدايات الأولى للقرن التاسع عشر بدأت تجارة القوافل الرابطة بين شمال إفريقيا ومنطقة ما وراء الصحراء الكبرى في التدهور نتيجة لبدء اتضاح النوايا الاستعمارية الأوروبية في المنطقة، وهو أمر تأكد فعلاً بعد ذلك بسنوات عندما وضع الفرنسيون الغزاة أقدامهم على السواحل الجزائرية عام 1831 إفرنجي مما أدى إلى اضطراب الأحوال الأمنية على طرق القوافل التي كانت تتجه إلى تلك المنطقة، كما أدى إلى تحول تجارة تمبكتو وبلاد السودان الغربي باتجاه غدامس ومراكش مرة أخرى باعتبار أن الطرق المؤدية إليها أكثر أمناً، وضاعف من تزايد لجوء التجار إلى الطرق المذكورة ما فرضه الاستعمار الفرنسي منذ الأيام الأولى لاحتلاله للجزائر من إجراءات جمركية مجحفة على طول الحدود الجنوبية للجزائر منذ العام 1843 إفرنجي الأمر الذي انعكس سلباً على تجارة القوافل عبر الطريق الذي كان يتوجه إلى تلمسان وبقية الشمال الجزائري، بل وتوقف تلك التجارة بعد ذلك بشكل شبه كامل.

وقد انعكس هذا الإجراء الفرنسي على تدفق التجارة والقوافل التجارية على غدامس، حيث وصلت قيمة التجارة التي كان تجار غدامس يتاجرون بها مع أشقائهم في السودان الغربي وتمبكتو بالذات في الفترة من عام 1846 إلى عام

1848 إفرنجي إلى حوالى 41,684 جنيه استرليني في المتوسط سنوياً، وهو أمر أصاب الفرنسين بالجنون بعد انقطاع القوافل التي كانت تتجه إلى الشمال الجزائري.

وتذكر المصادر التاريخية إن أول قافلة تجارية وصلت إلى الجزائر بعد توقف طويل عبر غدامس كانت في عام 1861 إفرنجي بعد أن تراجعت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر عن قرارها السابق بشأن الرسوم الجمركية، وقد قوبلت هذه القافلة لدى وصولها إلى هناك بتهليل وابتهاج كبير، واعتبر وصولها بداية طيبة لإعادة أحياء طرق القوافل.

وعلى الرغم من قيام الفرنسيين في الجزائر باتخاذ عدة خطوات بهدف استعادة الأمجاد السابقة لطرق القوافل القادمة من السودان الغربي، والتي من بينها قيامهم بإرسال وفد تفاوضي بقيادة الضابطين «ميرشير» Mircher و«بوليناك» Polignac إلى تجار غدامس للبحث في كيفية إعادة تنشيط خط تجارة القوافل المتجه للجزائر، وعقد هذا الوفد فعلاً معاهدة مع تجار غدامس بتاريخ 29/ 11/ 1862 إفرنجي، على الرغم من ذلك، فإن الفرنسيين لم يتمكنوا من إعادة تنظيم تجارة القوافل بعد أن اندلعت في الصحراء ثورة الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي بعد ذلك بسنتين عام 1864 إفرنجي.

وقد أورد التقرير الذي كتبه الضابطان الفرنسيان المذكوران سابقاً عن تجارة طرابلس مع منطقة السودان الغربي وتمبكتو في تلك الفترة، معلومات هامة عن تلك التجارة والمكاسب الهائلة التي تدرها على القائمين بها، فقد ذكرا مثلاً أن قيمة البضائع التي وصلت طرابلس خلال الفترة من شهر الفاتح «سبتمبر» 1861 إفرنجي إلى شهر التمور «اكتوبر» عام 1862 إفرنجي بلغت 59400 جنيه استرليني حسب أسعار طرابلس يومها، بينما صدّرت طرابلس إلى تمبكتو وكانو في نفس الفترة بضائع مختلفة قيمتها 41040 جنيه استرليني، وهي بضائع كانت تدر أرباحاً تصل إلى ما بين 100% إلى 150% في أسواق جنوب الصحراء،

وقدر الضابطان قيمة تجارة طرابلس مع منطقة غرب إفريقيا بشكل عام خلال نفس الفترة بأكثر من مائة ألف جنيه استرليني وهي ثمن حمولة نحو 1625 جملاً، على اعتبار أن كل جمل يستطيع أن يحمل حوالى 150كلغ.

وأوضح تقرير آخر نشره «س.و. نيوبري» C.W.Newbury في مجلة «التاريخ الإفريقي» في عددها الثاني لعام 1966 إفرنجي تحت عنوان «تجارة شمال وغرب السودان في القرن التاسع عشر» إن أهم أنواع التجارة التي كانت تأتي بها القوافل القادمة إلى الشمال الإفريقي من غرب السودان في تلك الفترة «كانت تبر الذهب والعاج»، وكان الذهب القادم من تمبكتو أقل سعراً بحكم قربها من مصدره الأصلي، إضافة إلى ريش النعام الذي كان له دور كبير في إنعاش تجارة الصحراء الكبرى في سبعينات القرن التاسع عشر، والذي كان يتم تصديره بالكامل باتجاه أوروبا، كما كانت هذه التجارة تشمل تصدير عشرات الأنواع الأخرى من البضائع من شمال إفريقيا مثل المنسوجات والمصنوعات الزجاجية، والورق، والمرجان، والنحاس، والشاي، والسكر.. الخ.

وفي الفترة من عام 1874 إلى عام 1888 إفرنجي وصلت قيمة صادرات منطقة غرب إفريقيا إلى طرابلس حوالى 73 ألف جنيه استرليني بالنسبة لريش النعام والعاج فقط.. بينما أشارت التقارير التي كتبها قناصلة أوروبا في طرابلس عن قيمة التجارة القادمة من تمبكتو وبقية مناطق غرب إفريقيا عن نفس الفترة ما بين 280 إلى 300 ألف جنيه استرليني، وهي مبالغ تقل كثيراً عما كانت عليه في نهايات القرن الثامن عشر، حيث كانت «الرابطة الإفريقية» التي أنشئت بإنجلترا في عام 1788 إفرنجي قد قدرت قيمة وحجم التبادل التجاري بين شمال إفريقيا ومنطقة ما وراء الصحراء الكبرى في نهايات القرن الثامن عشر بأكثر من مليون جنيه استرليني، بينما قدرها تاجر إنجليزي اسمه «دونالد ماكينزي» Donald mackenzy الذي كان يقيم في مراكش عام 1871 إفرنجي بأربعة ملايين جنيه استرليني وهو مبلغ هائل في ذلك الوقت.

وفي الفترة من عام 1878 إلى عام 1884 إفرنجي أصيبت أوروبا بأزمة اقتصادية كبرى تركت أثرها الواضح على نشاط تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى، وفي هذه الفترة أيضاً ظهرت في طرابلس وبقية مدن الشمال الإفريقي أخبار بداية التحرك الاستعماري الفرنسي على نهر النيجر ونهر السنغال بهدف احتلال تلك المناطق، وعلى رأسها مدينة تمبكتو بالذات، وهو أمر أدى بالتجار إلى التحفظ عن الاستمرار في إرسال قوافلهم باتجاه تلك المناطق، وقد أكد على هذه المخاوف قيام فرنسا بفرض الاحتلال الفعلي على تونس عام 1881 إفرنجي، وقد توقفت تجارة تمبكتو مع الشمال الإفريقي بشكل شبه تام بعد احتلالها من قبل الاستعماريين الفرنسيين عام 1894 إفرنجي وامتد هذا الاحتلال بعد ذلك إلى كامل منطقة السودان الغربي، والأوسط وحتى بحيرة تشاد بنهاية القرن التاسع عشر. . . وأدى ذلك إلى تحويل تجارة المنطقة بكاملها باتجاه السواحل الغربية للقارة الإفريقية منذ تلك الفترة ليتم تصديرها بحراً باتجاه أوروبا.

8

استغلال الجمعيات العلمية.. لاستعمار إفريقيا

في بداية القرن التاسع عشر أصبحت المطامع الاستعمارية للاستحواذ على منطقة غرب السودان والصحراء الكبرى واضحة بشكل تام، بل ومعلنة في بعض الأحيان، وكان هدف هذه المطامع الرئيسي والذي جسدته بشكل جلي كل من إنجلترا وفرنسا هو الاستحواذ على تجارة السودان الغربي بشكل تام، وتسخير مقدرات المنطقة وما تحويه من ثروات لصالح تلك الدول.

وعلى الرغم من اتضاح نوايا الدولتين الاستعماريتين وظهور استعدادهما لبدء التحرك الفعلي لفرض الاحتلال العسكري، إلا أن عقبة رئيسية حالت دون إسراع أي منهما في تنفيذ مهمة الاحتلال، وهي معرفة الكيفية التي يمكن بها للقوات الميدانية الوصول لتلك المناطق المستهدفة والسيطرة عليها بالتالي.

ومن هنا قرر كلا البلدين، كل منهما على حدة التوسع في إرسال الرحالة والمستكشفين إلى منطقة السودان الغربي لاستعلام معالم الطرق المؤدية إليها، ومعرفة المدن والواحات والقرى الواقعة فيها، ومدى متانة ومناعة التحصينات التي تحميها والتعرف على نوعية القوات والأسلحة التي توفر لها ولسكانها الأمان. ومعرفة كل شيء عن الممالك والسلطنات الإسلامية القائمة فيها وعناصر قوتها وضعفها.

وهكذا قررت الدولتان استغلال الجمعيات الجغرافية والعلمية القائمة فيهما للقيام بالتوسع في إرسال المستكشفين المطلوبين إلى هذه المنطقة، ومن هنا قامت إنجلترا بإدماج «رابطة تطوير كشف دواخل إفريقيا» التي كانت قائمة منذ العام 1877 إفرنجي في جمعية أخرى تتبع وزارة المستعمرات الإنجليزية، وأطلق عليهما معاً اسماً جديداً هو «الجمعية الجغرافية الملكية» بلندن في بداية الربع الثاني من القرن التاسع عشر، بينما دعمت فرنسا بكل ما لديها من إمكانيات الجمعية الجغرافية فيها للقيام بنفس المهمة، وتطوعت «الجمعية الجغرافية في برلين» بتوفير الرحالة المغامرين الذين تتوفر فيهم الشروط المطلوبة لارتياد الصحراء الكبرى.

وهكذا. . بدأت الاستعدادات الفعلية لغزو الصحراء الكبرى ومنطقة السودان الغربي لفرض الاحتلال العسكري.

ويذكر مؤلف كتاب «قبائل الصحراء الكبرى» الصادر عن جامعة ـ أكسفورد ـ الإنجليزية عام 1960 إفرنجي الدكتور ـ لويد كابوت ـ .D: Biggs Lloyd, Cabot وهو أحد أعضاء جامعة ـ هارفارد ـ الأمريكية «إن أول أوروبي تمكن من عبور الصحراء الكبرى بعد العصر الروماني كان رجلاً فرنسياً من مدينة ـ تولوز ـ الفرنسية اسمه «انسلم ديسلجيه» Anselm dlselguiers والذي كان قد غادر بلاده في عام 1402 إفرنجي وسافر إلى منحنى نهر النيجر بطريقة غير واضحة وغامضة، وهناك تزوج من أميرة من سلالة ـ السونغاي ـ من سكان بلدة غاو ـ Gao وعاد بها إلى بلاده عبر الصحراء برفقة أطفاله منها، ووصل إلى ـ تولوز ـ عام 1413 إفرنجي وكان من بين أفراد حاشية الأميرة زوجته رجل مسلم يدعى «ابن علي» وكان على دراية بالطب الشعبي العربي.

وتضيف الرواية إن أميراً فرنسياً يدعى «دوفين تشارلز» أصبح فيما بعد ملكاً على فرنسا باسم «تشارلز السابع» كان وبعد سنوات قليلة من وصول تلك الأسرة ومرافقها ـ ابن علي ـ في زيارة لمدينة ـ تولوز ـ عندما ألمَّ به مرض غامض حار

في وصفه أطباء عصره، فتقدم ـ ابن علي ـ المواطن الإفريقي ليعالجه بطريقته وبواسطة أعشاب طبية يبدو أنه كان يحملها من بلاده ـ غاو ـ واستطاع بذلك معالجة الأمير فعلاً ونجحت أدويته في شفاء الأمير من علته، مما حدى بهذا الأمير أن يكافئه بمبلغ كبير من المال.

وفي عام 1447 إفرنجي نجح أحد تجار مدينة ـ جينوه ـ الإيطالية واسمه «أنطونيو مالفانت» Antonio malfante في إرسال رسالة إلى أهله بإيطاليا ضمنها معلومات عن الصحراء وما فيها، وكانت الرسالة مرسلة من بلدة ـ توات ـ الواقعة بالجنوب الجزائري بعد أن تمكن بطريقة غير معروفة من مرافقة قافلة تجارية انطلقت من السواحل الشمالية للجزائر، غير أن أخبار هذا الإيطالي انقطعت فجأة، ولم يرسل شيئاً إلى أهله منذ ذلك الوقت.

بعده تمكن مواطن برتغالي يدعى «بينيدتو دي» Bendetho dei من زيارة مدينة تمبكتو في عام 1470 إفرنجي وفيها أسس محلاً تجارياً كان يبيع فيه الأقمشة المستوردة عن طريق طرابلس من ـ لامبارديا ـ بالشمال الإيطالي.

وتذكر المصادر التاريخية إن مدن ـ تمبكتو ـ و ـ غاو ـ و ـ جنة ـ كان بها في تلك الفترة، وحتى في المراحل الأخيرة لامبراطورية السنغاي الإسلامية العديد من المحلات التجارية التي كان يمتلكها إيطاليون، والذين كانوا يتعاملون في بيع الأقمشة وأنواع التجارة الأخرى ذات المنشأ الأوروبي، والتي كان تجار القوافل القادمين من مدن الشمال الإفريقي يأتون بها مع تجارتهم.

ومرت فترة من الزمن عادت فيها الصحراء الكبرى لتنغلق تماماً في وجه الأوروبيين بعد أن بدأت ترد لزعماء المنطقة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الإفرنجي تقارير ومعلومات متوالية عما يفعله الأوروبيون على السواحل الغربية لإفريقيا، حيث كان قراصنتهم يمارسون أبشع عملية استرقاق مارسها الإنسان ضد أخيه الإنسان على مر التاريخ كله، من خلال قيامهم باصطياد أهالي إفريقيا، خصوصاً شبابها وفتياتها والزج بهم في مراكبهم وسفنهم والتوجه بهم

غصباً عن إرادتهم باتجاه سواحل الأرض الجديدة في الأمريكيتين، وتسخيرهم هناك للعمل «كرقيق» في مزارع البيض العنصريين.

وفي نهايات القرن التاسع عشر وبعد أن انتهى الأوروبيون من سد حاجتهم في الأراضي الجديدة من ـ الرقيق ـ القادم من إفريقيا، وهم الذين سُخِّروا بدون مقابل للعمل في استنزاف مناجم الذهب والفضة وبقية المعادن الأخرى المكتشفة هناك بعد إبادة سكان تلك الأراضي من الهنود الحمر بشكل شبه تام تقريباً. اخترع الإنجليز بشكل خاص وتبعتهم بعض الدول الأوروبية في ذلك فيما بعد، فكرة تحريم الإتجار في الرقيق «كعمل إنساني» بدا وكأن ضمائرهم قد صحت عنه فجأة، بينما كانت نفس هذه الضمائر تخطط في تلك الفترة لاقتراف جريمة أخرى أشد وألعن من الأولى لاحتلال وطن نفس ذلك الإنسان الإفريقي واستعباده هو ووطنه.

وبهذه الحيلة الجديدة أعطى الإنجليز لأنفسهم حق مطاردة سفن القراصنة التي كانت تجوب سواحل قارتي إفريقيا وأمريكا ناقلة المزيد من بني الإنسان إلى الأرض الجديدة، وبهذا الحق أصبح قناصلة أوروبا وإنجلترا بشكل خاص يتدخلون في كل شيء، كما أنه وتحت نفس الذريعة أعطى قناصل فرنسا وإنجلترا لأنفسهم حق مراقبة القوافل التجارية القادمة إلى مدن الشمال الإفريقي من الصحراء الكبرى، وهي وسيلة وحجة مكنتهم من التدخل لدى باشوات وبايات وحكام الشمال الإفريقي من الأتراك.

وبالتوازي مع هذه المساعي التي أجاد بها الإنجليز والفرنسيين إخفاء الأهداف الحقيقية لنواياهم الأبعد والأهم، بدأ رحالة أوروبا يتدفقون على منطقة الشمال الإفريقي في عمل منهجي ومبرمج ومعد بشكل جيد لتحقيق أهداف لم يكن أحد في تلك الفترة يعلم عنها شيئاً، وفي هذه الفترة وصل إلى تمبكتو عاصمة الصحراء الكبرى الرحالة الفرنسي ـ رينيه كالييه ـ Rene callie الذي بدأ رحلته من السنغال في عام 1827 إفرنجي ثم عاد إلى فاس بالمغرب بعد فترة

وجيزة ومنها إلى فرنسا، وبسبب نجاحه في الوصول إلى الهدف ـ تمبكتو ـ وتقديمه لمعلومات هامة عنها وعن موقعها وتجارتها ورخائها حصل على المكافأة المالية التي كانت ـ الجمعية الجغرافية الفرنسية ـ قد خصصتها لمن يتمكن من زيارة المدينة الغامضة ويعود منها سالماً، وكانت قيمة تلك المكافأة عشرة آلاف فرنك فرنسي.

وقد ألهبت هذه الرحلة ونجاحها اهتمام الإنجليز وأطارت النوم من جفونهم بسبب نجاح الفرنسيين فيما فشلوا هم فيه، حيث كانوا يرون في أنفسهم أنهم الأحق بشرف الوصول إلى تمبكتو لأن الفكرة راودتهم أولاً، ولم يصدق الإنجليز قيام هذا الرحالة الفرنسي بزيارة تمبكتو والعودة منها حيا، وبقوا على ذلك لمدة ربع قرن بكامله وهم يشككون في كل المعلومات التي أتى بها ـ كاليبه ـ إلى أن تمكن رحالة ألماني أرسلته الجمعية الجغرافية الملكية بلندن وهو ـ الدكتور هنريش بارت ـ من الوصول إلى نفس الهدف عام 1853 إفرنجي، حيث استقبله شيخ قبائل ـ الكونتا ـ أحمد الكباي كونتا ـ أثناء فترة حكومته في تمبكتو، وحماه من الطوارق ومن قبائل البولا، التي كانت تعادي وترفض الأجانب في المنطقة. وبعد عودته إلى بلاده أكد على صدق كل المعلومات التي ذكرها الرحالة الفرنسي ـ كاليبه ـ بعد أن أخبره سكان تمبكتو بوصوله إليها حقاً. . وقبل الدكتور بارت كان رحالة إنجليزي آخر هو ـ الكسندر لينغ ـ قد تمكن من الوصول إلى تمبكتو عام 1825 إفرنجي غير أنه قتل هناك ولم يعثر أحد على مذكراته، كما سنرى ذلك في الأوراق التالية.

الطريف هنا. . . أن رينيه كاليبه وبسبب التشكيك الذي قوبلت به المعلومات التي نشرها عن تمبكتو أصيب بإحباط شديد أدى إلى موته في نهاية المطاف.

9

غزاة فرنسا يضعون أقدامهم على شواطىء إفريقيا

في عام 1831 إفرنجي وضع الفرنسيون أقدامهم لأول مرة كغزاة قدموا لفرض الاحتلال العسكري على السواحل الشمالية لإفريقيا، عندما تمكنت قواتهم الغازية من احتلال سواحل الجزائر بعد معارك ضارية مع أهلها حسمها السلاح الفرنسي المتطور في نهاية المطاف لصالح الغزاة.

وعلى الرغم من تمكن القوات الغازية من السيطرة على عدة نقاط على السواحل الشمالية للجزائر، إلا أنها لم تتمكن من التوغل باتجاه الجنوب لعدة سنوات لاحقة بسبب المقاومة العنيفة التي اندلعت في وجه الغزاة في كامل المناطق الداخلية من الجزائر، وهو أمر كان لا بد أن يؤدي بالتالي لتوقف تجارة القوافل التي كانت تتاجر من هناك مع مناطق ما وراء الصحراء الكبرى عبر ـ توات ـ و ـ عين صالح ـ بالجنوب الجزائري.

ولم يتحمل الفرنسيون انقطاع تلك التجارة التي كانت واحدة من بين أهم أهداف احتلالهم للجزائر، حيث كانوا يأملون في أن يتم تسخير تلك التجارة بالذات لصالحهم، كما كان من بين مخططاتهم في تلك الفترة تحويل كافة طرق القوافل التجارية المتجهة إلى بقية مدن الشمال الإفريقي باتجاه الجزائر.

ولم تنجح كل المحاولات التي بذلها الحكام العسكريون الفرنسيون

للجزائر في تحقيق أي من أهدافهم الخاصة بالاستحواذ على تجارة الصحراء، ولذلك قرروا في عام 1856 إفرنجي إرسال بعثة إلى واحة غدامس التي كان يطلق عليها بالإضافة إلى غات ومرزق اسم «مدن القوافل» Caravan cities وكانت تحتل أهمية بالغة في تجارة القوافل، في محاولة تستهدف إقناع تجارها بإعادة توجيه تجارة القوافل باتجاه الشمال الجزائري.

وهكذا.. تم ترتيب رحلة قادها أحد ضباط سلاح الفرسان بالجيش الفرنسي وهو ـ الكابتن دي بونيمان ـ Cap:de.bonnemain، ووصل هذا الفرنسي الذي كان يتقن اللغة العربية إلى هدفه في 19 الكانون «ديسمبر» من نفس العام بعد أن انتحل اسم «مصطفى» واستقبله أهالي غدامس وتجارها وفتحوا له بيوتهم، وتمكن من جمع معلومات هامة عن المدينة وتجارتها، كما رسم موقعها على الخارطة.

وبعده، وفي عام 1859 إفرنجي قام رحالة فرنسي آخر هو ـ إنريك دوڤيريير Enrico duverier بالتوجه إلى مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري ومنها توجه إلى طرابلس التي حصل فيها على مساعدة قنصل فرنسا في تلك الفترة «بوتا» P.E.Botta والذي بدوره حصل له من باشا طرابلس على عدة رسائل توصية مكنته من العودة إلى غدامس ومنها إلى غات صحبة الأمير الحاج ـ محمد إيخو نخن ـ زعيم قبيلة طوارق ـ إزقر ـ ومن غات توجه هذا الرحالة الفرنسي إلى مرزق وعاد إلى طرابلس مرة ثانية ومنها إلى فرنسا.

وقد استطاع هذا الرحالة أثناء إقامته الطويلة بين قبائل الطوارق القاطنين في الصحراء الواقعة جنوب الجزائر تحت ستار البحث والاستكشاف، التنقل وسط الصحراء الكبرى بعد أن أقنع الطوارق بمهمته البحثية، مما مكنه من معرفة كل التفاصيل المتعلقة بحياتهم وعاداتهم وطرق معيشتهم، وهو أمر مكنه فيما بعد ولدى عودته إلى بلاده من تأليف كتاب ضخم حمل اسم «طوارق الشمال» وقد انتحر هذا الكاتب الرحالة فيما بعد بإطلاق النار على نفسه في غابة بالقرب من

باريس في 25/4/1862 إفرنجي بعد اتهامه بإعطاء معلومات مضللة عن الطوارق.

وقد استغل هذا الرحالة الفرنسي طيبة وسماحة أهالي المنطقة الذين عاش بينهم لعدة سنين بأمن وأمان وفتحوا له خلالها أبواب خيامهم مع أبواب قلوبهم واستأمنوه على أسرارهم وتاريخهم، استغل هذا الرحالة كل ذلك واستغل بعض زعماء قبائل الطوارق في تلك الجهات بالتوقيع على وثيقة اعتبرها الفرنسيون فيما بعد ـ وثيقة صداقة ـ مع قبائل الطوارق وحاولوا استغلال البنود التي وردت فيها لاستعادة أمجاد تجارة القوافل باتجاه السواحل الشمالية للجزائر، إضافة إلى تمكين البعثات الاستكشافية الفرنسية للتوغل في الصحراء الكبرى.

وعلى الرغم من أن أحداً من طوارق الجنوب الجزائري لم ينفذ حرفاً واحداً من بنود تلك الاتفاقية ـ الخدعة ـ إلا أن الفرنسيين المحتلين للشمال الجزائري لم ييأسوا وواصلوا محاولاتهم لاختراق الصحراء بدأب لا يعرف اليأس، ومن أجل ذلك.. وفي نفس ذلك العام قاموا بإرسال بعثة استكشافية تجسسية أخرى باتجاه الجنوب الجزائري كان هدفها هذه المرة الوصول إلى طرابلس عبر غدامس، وقد انطلقت هذه البعثة باتجاه المناطق المحددة في 23 الفاتح «سبتمبر» 1862 إفرنجي برئاسة «السرجينت: «م. مرشير» M.Miercher ومهندس المناجم ـ فاتون Vatonne ـ والدكتور هوفمان Hoffman ـ ورجل جزائري كان يعرف المنطقة واتخذ كدليل للبعثة يدعى «اسماعيل أبو دربة».

وقد تمكنت البعثة من تحقيق المهمة المكلفة بها قبل أن تعود من حيث أتت، وهي مهمة مكنت أفرادها من معرفة المزيد من المعلومات عن دواخل المناطق التي قاموا بزيارتها والحصول على معلومات وملاحظات إضافية عن الطرق والمسالك التي تصل الشمال الجزائري بواحة غدامس.

وفي العام 1874 إفرنجي تطوع أحد موظفي وزارة المستعمرات الفرنسية بالجزائر وكان يعمل سابقا في السنغال، للتوجه إلى غدامس ومنها محاولة

الوصول إلى السنغال مركز عمله السابق عبر تمبكتو، وهو الفرنسي «نوربرت دورنو دوبير» Norbert dovrneaux duper، كما تطوع معه للقيام بهذه الرحلة أحد تجار بلاده من المقيمين في الجزائر، غير أن المهمة فشلت تماماً عندما قتل الاثنان بعد مغادرتهما لغدامس باتجاه غات بعدة أيام.

وفي خلال الفترة من عام 1874 حتى عام 1876 إفرنجي قام فرنسي آخر يدعى «ڤيتوريو لارجو» Vittorio Largeau بزيارتين إلى جنوب الجزائر حتى وصل غدامس بغرب ليبيا، حيث تمكن من جمع معلومات هامة عن المنطقة، وتجارتها و علاقتها ببقية مناطق غرب إفريقيا، غير أنه فشل تماماً في التوغل إلى أبعد من ذلك.

وفي العام 1881 إفرنجي قام الفرنسيون المحتلون للجزائر بإرسال أحد قادتهم العسكريين هو ـ العقيد: فلاترز G:Flatters على رأس بعثة مكونة من ثلاثة من مساعديه و90 مرافقاً من بينهم 20 عسكرياً، وحاولت هذه البعثة التوغل داخل الصحراء الجزائرية، غير أن قبائل الطوارق التي فطن رجالها لحقيقة المهام التي كان يقوم بها أولئك الغزاة، قاموا بنصب كمين لتلك البعثة الاستكشافية وقتلوهم جميعاً، وتذكر المصادر التاريخية أن ردة الفعل هذه أتت مباشرة بعد وصول أنباء احتلال فرنسا لتونس في ذلك العام.

وهكذا.. أغلقت الصحراء مرة أخرى في وجه الفرنسيين من الشمال الجزائري وأحبطت كافة المساعي التي حاول أولئك الغزاة التوغل عن طريقها من تلك الجهات باتجاه تمبكتو، والسيطرة على تجارة القوافل القادمة منها.

وكان واضحاً في تلك الفترة وعقب مقتل بعثة العقيد «فلاترز» أن المستعمرين الفرنسيين في الجزائر قد وصلوا إلى قناعة تامة، بأن الإسلام الذي تعتنقه كافة قبائل الطوارق القوية المسيطرة على الصحراء كلها، هو السد الذي تحطمت عليه كافة محاولاتهم للتوغل جنوباً من الشمال الجزائري، ومن هنا قرروا أنه ولكي تنجح محاولاتهم للتوغل باتجاه السودان الغربي وتمبكتو عن

طريق تلك الجهات فلا بد من عمل شيء ضد الإسلام نفسه، وعلى الرغم من أن الفرنسيين لم يصرحوا بهذه القناعة علنا، إلا أن تصرفاتهم في تلك الفترة كانت توضح ذلك بجلاء، وهو أمر كشف عنه الفرنسي العقيد «دي بوليناك» De Polignac في مقدمة كتاب له بعنوان «اكتشاف الصحراء» L'exploration du Sahara الصادر عام 1895 إفرنجي عندما قال «إن الخطر الإسلامي هو الذي يتهدد الوجود الفرنسي من الصحراء الكبرى».

ومن هنا.. ارتأى المسؤولون الفرنسيون سواء أولئك الذين كانوا في الجزائر، أو أولئك الذين في فرنسا، ضرورة الإسراع في احتلال الصحراء الكبرى والسيطرة على القبائل المسلمة القاطنة فيها، والتي تتوارث السيادة على هذه المساحة المترامية من الأرض جيلاً بعد جيل، وترفض وجود الغرباء فيها مهما كانت مبرراتهم وحججهم، كما توارثت السيطرة على تجارة الصحراء بحكم معرفتها لكل شبر وكل حجر وكثيب رمل فيها، ومعرفتها بالمنافذ التي تربط مراكز الإنتاج في السودان الغربي بالمنافذ البحرية على الساحل الشمالي لإفريقيا.

10

سياسة الحرق والإبادة

كان الفرنسيون وعقب مقتل أغلب مبعوثيهم ومستكشفيهم وجواسيسهم وسط الصحراء الكبرى، وعقب فشل كل محاولاتهم للتوغل إليها عبر الجنوب الجزائري، والتي كانوا يأملون من خلالها، مواصلة التوغل في الصحراء نحو السودان الغربي والأوسط، قد وصلوا إلى قناعة تامة بأن التوغل عبر ذلك الاتجاه هو من المستحيلات، ولذلك نراهم في العام 1891 إفرنجي قد اتجهوا نحو السواحل الغربية لإفريقيا محاولين التوغل من هناك إلى الهدف المقصود «تمبكتو»، وهكذا.. وفي ذلك العام اتجه «الكابتن مونتيل» CAP:Monteil انطلاقاً من سواحل السنغال باتجاه تشاد عبر نهر النيجر، وتمكن بعد صعوبات جمة تغلب عليها جميعاً، وبمساعدة أهل المنطقة الذين وثقوا في ادعاءاته، من استكشاف نهر النيجر، ومن تشاد اتجه شمالاً عبر «بلما» Bilma إلى مرزق بالجنوب الليبي، ثم إلى طرابلس، التي وصلها في العام التالي ومنها عاد إلى بلاده فرنسا، وقد تمكن هذا الرحالة من الحصول على كافة المعلومات المطلوبة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة في المناطق العديدة التي مر بها، وهي المعلومات التي استعانت بها القوات الفرنسية في غزو تمبكتو بعد ذلك بعامين.

كان العامل الأساسي الذي مكن هذا الفرنسي من الوصول إلى هدفه ـ بحيرة تشاد ـ عبر تلك الجهات، هو تمكن القوات الفرنسية الغازية التي خرجت من السنغال من السيطرة على أغلب جيوب المقاومة الوطنية التي اشتعلت في وجه الغزاة في تلك الجهات وخاصة على طول امتداد نهر النيجر، وهي مقاومة قادها مجاهدون أبطال من أهالي المنطقة مثل المجاهد ـ ساموري توري، والمجاهد عثمان بن فودي، والمجاهد محمد الأمين، والمجاهد أحمد التكروري، والمجاهد محمد بللو، وغيرهم من أبطال السودان الغربي والأوسط الذين تصدوا لجحافل الغزو الفرنسي بكل إمكانياتهم، واستشهدوا في ميادين المعارك أو منفيين بعيدين عن أوطانهم وأهلهم، بعد أن فرض عليهم المستعمر الفرنسي ذلك النفي الإجباري.

لقد سقطت «باماكو» العاصمة الحالية لمالي في عام 1883 إفرنجي أثناء هذه الفترة، على الرغم من مقاومة أهلها للغزاة على مدى قرابة عقدين، وهي مقاومة لم تنته إلا بالقبض على المجاهد ـ ساموري توري ـ والشيخ ـ أحمدو شيخو ـ ونفيهما للغابون عام 1898 إفرنجي.

وعلى ضوء المعلومات الجديدة التي قدم بها «الكابتن مونتيل» قرر واضعو الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية في باريس ضرورة الإسراع في السيطرة على الصحراء الكبرى وعلى نهر النيجر والأقوام الموجودة فيهما وفرض الاحتلال العسكري، وأن يكون هذا التحرك انطلاقاً من الشمال عن طريق الجزائر، ومن السنغال على الساحل الغربي للمحيط الأطلسي، ومن مستعمرتهم التي كانوا يحتلونها في إفريقيا الوسطى، على أن يكون هدف هذا التحرك الثلاثي الأبعاد الوصول إلى بحيرة تشاد بعد أن يتم أثناء المهمة السيطرة على كامل امتداد نهر النيجر.

وعلى الرغم من المواجهة العنيفة التي واجهت المستعمرين الزاحفين من السنغال على امتداد نهر النيجر من الأقوام والقبائل التي تستوطن تلك المناطق،

وهي مقاومة استشهد فيها الآلاف من الأفارقة مسلمين وغير مسلمين وضرب فيها أولئك الرجال أروع ملاحم البطولة والفداء للدفاع عن أوطانهم وعن دينهم، إلا أن الغلبة كانت في نهاية المطاف للسلاح الفرنسي الفتاك الذي استعمله الغزاة في حربهم ضد أبناء المنطقة، وسياسة الحرق الكامل للقرى والمدن التي مروا بها.

وهكذا احتل الفرنسيون الغزاة المدينة الغامضة «تمبكتو» عام 1894 إفرنجي واحتلوا مدينتي «جنة» jenne وسيجو Segu التاريخيتين المجاورتين لها في نفس العام، وبادر المستعمرون للتوسع في إقامة الحصون والقلاع للاحتماء داخلها من بقايا المقاومة التي كانت تواجههم بين الحين والآخر من قبل السكان على امتداد نهر النيجر.

وبسبب سياسة الحرق والإبادة التي اتبعتها القوات الفرنسية الغازية فقد تحولت مدينة تمبكتو الأسطورة في أيام، إلى خراب وأطلال، بعد احتلالها حيث هجرها سكانها الذين أرعبتهم سياسة القتل الجماعي التي مارسها الغزاة لكل من يصادفهم على الطريق من أبناء المنطقة، وتوقفت الحياة التجارية والثقافية والعلمية بالمدينة تماماً. . .

ووصف مؤلف كتاب «تمبكتو الغامضة» ـ فيليكس دوبوا ـ والذي صدر بعد ثلاث سنوات فقط من احتلال المدينة، وبعد أن تمكن كاتبه من زيارتها صحبة قافلة عسكرية فرنسية، وصف كيف تحولت المدينة وبيوتها ومراكز العلم فيها ومساجدها التي كانت حتى سنوات قليلة ماضية تعج بالأئمة والوعاظ وحفظة القرآن الكريم، وهي التي كانت منارة إسلامية لكافة أنحاء منطقة غرب إفريقيا، إلى أطلال على أيدي الفرنسيين الغزاة الذين نهبوا كل شيء فيها، وما لم يتمكنوا من نهبه أحرقوه ودمّروه. . .

وقال المصدر السابق نفسه، أن أغلب المنشآت التي رآها داخل المدينة بعد الاحتلال سوف لن يصدق إنسان أنها كانت وعلى مدى عدة قرون عامرة

بالحياة، ويلتقي فيها عشرات الآلاف من العلماء والأئمة والتجار من كافة الأنحاء.

أما بالنسبة للمحاولات الفرنسية للتوغل جنوباً انطلاقاً من الجزائر، فإنها أصيبت بنكسة أخرى بعد سنوات قليلة من مقتل بعثة «العقيد فلاترز» ذلك أنه وحتى بعد تمكن القوات الفرنسية من احتلال تمبكتو، لم تتمكن تلك القوات الغازية من اختراق الصحراء الكبرى من تلك الجهة، بسبب المعارضة الشديدة التي أبدتها قبائل الطوارق المسيطرة على تلك المناطق لأي توغل أجنبي عبر تلك الجهات، ومن هنا لم يتمكن أي أوروبي من معرفة ما يدور في تلك المنطقة إلا في عام 1899 إفرنجي عندما استطاع اثنان من الأوروبيين الوصول إلى واحة «عين صالح» بالجنوب الجزائري، الأول كان المواطن الاسكتلندي «ميجر: الكسندر جوردن لينغ (Gordon laing) والثاني كان الألماني ـ جيرهارد رولفس (Gerhard rohlfs)، وكلاهما كان مرسلاً من قبل الجمعية الملكية الجغرافية في لندن واتخذ الأول من طرابلس نقطة انطلاق له، بينما زارها الثاني أثناء مروره إلى طرابلس في رحلته الأولى انطلاقاً من المغرب.

وفي العام 1898 إفرنجي تحركت الحملة الفرنسية الثلاثية لاحتلال بحيرة تشاد والسيطرة على منطقة السودان الأوسط، وهي حملة قادها من الشمال الجنرال «لامي» Lamey من الجزائر، ومن إفريقيا الوسطى الضابط «إميل جنتيل» Emile gentil والثالثة من السنغال قادها الضابط «جولاند» Joaland واستولت الحملة على مدينة «زندر» Zinder التاريخية الواقعة شمال كانو في نفس العام، والتقت القوات الغازية القادمة من الجنوب التشادي بقوات المجاهدين بقيادة الشيخ ـ رابح فضل الله ـ في العديد من المعارك الطاحنة خسر فيها الفرنسيون عشرات القتلى ومئات الجرحى، وانتهت بأن حسم السلاح الفرنسي وسياسة الإبادة الجماعية التي مارسها الفرنسيون والقتل الجماعي لكل شيء، المعركة لصالحهم في عام 1900 إفرنجي عندما استشهد المجاهد رابح فضل الله، وعلى

الرغم من ذلك فقد استمرت المقاومة الباسلة التي قادها أبناء المنطقة وأبناء الشيخ رابح وأشقاؤهم الليبيون الذين كانوا يشاركونهم معاركهم وتصديهم للغزاة لأكثر من عشر سنوات تالية بعد استشهاد الشيخ رابح. ولم تنته إلا في عام 1911 إفرنجي عندما انسحب المجاهدون الليبيون باتجاه الشمال لملاقاة الغزو الإيطالي لبلادهم الذي بدأ ذلك العام.

وهكذا.. وعلى الرغم من كل الجهود المحمومة التي قام بها الإنجليز المنافسون الرئيسيون لفرنسا في هدف احتلال منطقة الصحراء الكبرى والسودان الغربي والأوسط «كما سنرى في الصفحات التالية» تحت ستار الكشف عن مدينة تمبكتو الغامضة ونهر النيجر كما كانو يدّعون. على الرغم من ذلك فقد شاءت الأقدار أن يتمكن الفرنسيون من الوصول أولاً إلى تلك المناطق، وإعلان سيطرتهم على كامل منطقة غرب إفريقيا بانتهاء القرن التاسع عشر الإفرنجي، باستثناء المغرب وموريتانيا اللتين تم الاستيلاء عليها من قبل الفرنسيين أيضاً بعد ذلك بعدة سنوات، وهي سيطرة أصبحت رسمية وفعلية، أجبر الأوروبيون بصفة عامة والإنجليز بشكل خاص على الاعتراف بها، خاصة بعد أن احتلت القوات الفرنسية تمبكتو، تطبيقاً لقرارات مؤتمر برلين الاستعماري الذي تم فيه عامي 84/ 1885 إفرنجي تقسيم القارة الإفريقية بين الدول الأوروبية الاستعمارية.

وعلى امتداد هذه الفترة التي تواصل فيها الغزو العسكري الفرنسي للمنطقة، خاضت السلطات الاستعمارية الفرنسية صراعاً دبلوماسياً شرساً مع منافسيها من الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا للاعتراف لها بأحقية السيطرة والنفوذ على منطقة السودان الغربي والأوسط، وتمكنت بالفعل من تحقيق هدفها من خلال عقدها لاتفاقية في 4/ 8/ 1890 إفرنجي مع إنجلترا لتحديد مناطق نفوذ كل منهما حول نهر النيجر وبحيرة تشاد، وتم تدعيم هذه الاتفاقية باتفاقية أخرى توصل إليها البلدان عام 1898 إفرنجي حصلت فيها فرنسا على اعتراف إنجلترا بحق بسط نفوذها على كامل المنطقة الممتدة من البحر المتوسط شمالاً حتى نهر

النيجر جنوباً، ومن بحيرة تشاد شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً.

وهكذا.. تمكن المستعمرون الفرنسيون، وبعد حقب طويلة من التستر خلف ادعاءات البحث والاستكشاف عن مدن وأنهار القارة السمراء، من الكشف عن حقيقة نواياهم وأهدافهم الاستعمارية في الاستحواذ على خيرات القارة ونهب قوت أبنائها. وهو نهب طال كل شيء واستهدف كل شيء، ولم يترك أخضراً ولا يابساً إلا وطاله بالنهب والسرقة.

11

إنـجلتـرا.. تـدخل الميدان

كانت إنجلترا، وطوال القرن التاسع عشر، تحاول من خلال مساعي محمومة ومتواصلة، التغلغل إلى منطقة غرب السودان والصحراء الكبرى، ومعرفة الطرق المؤدية إليها لوضع يديها على تجارة المنطقة، وعلى الأخص تلك القادمة من مدينة تمبكتو، ومن جهة أخرى استباق فرنسا التي كانت تبذل من طرفها وعلى طريقتها الخاصة جهوداً محمومة أكثر شراسة ومثابرة، كما رأينا في الصفحات السابقة، للاستحواذ على المنطقة وخيراتها.

وتستر الإنجليز مثلهم مثل الفرنسيين خلف واجهة البحث العلمي، وتنمية المعارف الجغرافية بمنطقة غرب إفريقيا، وعلى الأخص البحث عن حقيقة المدينة الغامضة ـ تمبكتو ـ ومعرفة الاتجاه الحقيقي لنهر النيجر.

ولتحقيق أهداف الحكومة الإنجليزية الاستعمارية، بدأ رحالة هذه الدولة ومنذ نهايات القرن الثامن عشر في التدفق على منطقة الشمال الإفريقي، وهم رحالة تستر أغلبهم برداء الإسلام، واتخذوا أسماء عربية حتى يضمنوا اطمئنان سكان الصحراء لهم ويتمكنوا بالتالي من مرافقة قوافل التجار العرب الذين كانوا يتاجرون مع تلك المناطق البعيدة.

وكانت قد تأسست في إنجلترا في العام 1788 إفرنجي جمعية علمية بادر

بإنشائها عدد من العلماء والتجار الإنجليز تحت اسم «جمعية النهوض بكشف الأجزاء الداخلية من إفريقيا» Association for promoting the discovery of the interior part of africa.

وكان هدف الجمعية في بدايات تكوينها علمياً وبحثياً، وهو أمر أوضحته بجلاء محاضر جلسات العلماء الذين كوّنوها في البدايات الأولى، وهي محاضر بيّنت أن هدفها هو إثراء المحافل العلمية والجغرافية في إنجلترا والعالم كله بمعلومات إضافية عن منطقة وسط إفريقيا وغربها بشكل خاص، وبقية أجزاء القارة بشكل عام، لاستكمال المعلومات التي كانت معروفة من قبل عن هذه المناطق، والتي قدمها الرحالة والمؤرخون العرب في القرون السابقة مثل ـ ابن حوقل ـ وابن بطوطة ـ وحسن الوزان ـ وابن خلدون ـ وغيرهم، وخاصة هدف إماطة اللثام عن المدينة الغامضة ـ تمبكتو ـ ومعرفة اتجاه نهر النيجر إضافة إلى معرفة ما يدور في واحات الصحراء الكبرى وما فيها من بشر.

وهكذا، قامت الجمعية الجغرافية الإنجليزية بإرسال أول رحالة أوروبي باتجاه الشمال الإفريقي وبهدف استكشاف مناطق النيل الأعلى، وهو البحار الإنجليزي ـ ليد يارد ـ Led yard الذي سافر إلى القاهرة، وكان هدفه محاولة الانطلاق منها عبر نهر النيل باتجاه الجنوب لاستكشاف منابعه، غير أنه لقي مصرعه في القاهرة عام 1788 إفرنجي بعد وصوله إليها بأيام نتيجة إصابته بمرض غامض، ولم تمض سوى أشهر قليلة على وفاة ـ ليد يارد ـ حتى تقدم رحالة إنجليزي آخر بطلب للجمعية اللندنية هو ـ وليام سيمون لوكاس ـ William Simon Lucas مقترحاً فيه محاولة القيام بالوصول إلى نهر النيجر انطلاقاً من طرابلس الغرب.

وكان ـ لوكاس ـ قد عمل في القنصلية الإنجليزية بالمغرب، وأثناء فترة أسر دامت ثلاث سنوات قبل ذلك قضاها في بلاط امبراطور مراكش، أجاد فيها تعلم اللغة العربية، وعرف الكثير عن عادات العرب وتقاليدهم، إضافة إلى تعرفه بحكم منصبه القنصلي بوزير خارجية ليبيا في تلك الفترة «الشيخ عبد الرحمن»

الذي التقاه أثناء زيارة هذا الأخير إلى لندن في مهمة طويلة هناك. . ووافقت الجمعية على طلبه، حيث انطلق باتجاه طرابلس الغرب التي وصلها في شهر التمور «أكتوبر» 1788 إفرنجي وادّعى أثناء مقابلته للباشا العثماني حاكم طرابلس يومها، أنه قدم للبحث عن الآثار والأعشاب الطبية بالجنوب الليبي، وبموجب هذا الادعاء حصل على إذن الباشا، فالتحق بقافلة كانت متجهة إلى فزان في شهر النوار «فبراير» من العام التالي، غير أن صعوبات واجهته أثناء مكوثه في مصراتة على الساحل الليبي شرق طرابلس والتي مرت بها قافلته، حيث لم يتمكن هناك من الحصول على إبل جيدة وقوية لمواصلة الرحلة نحو الجنوب، غير أنه تمكن بدلاً من ذلك وهو في هذه المدينة من الحصول على معلومات مهمة عن الصحراء ومناطق السودان الأوسط والغربي من تجار القوافل الذين كانوا يترددون على تلك المناطق، وهي معلومات أكد على صحتها الحاكم التركي لمصراتة نفسه بحكم إلمامه بالمنطقة وما فيها، وقام «لوكاس» بإرسال هذه المعلومات إلى الجمعية الجغرافية في لندن وعاد إلى طرابلس ومنها إلى بلاده في شهر ناصر «يوليو» من العام نفسه.

وقد تطابقت المعلومات التي حصل عليها ـ لوكاس ـ من تجار القوافل في مصراتة عن إقليم فزان، وواحة غدامس، ومجرى نهر النيجر وسلطنة بورنو، ومدينة ـ كاتسينا ـ بالسودان الأوسط، مع المعلومات التي كانت الجمعية اللندنية قد حصلت عليها فيما بعد عن طريق الرحالة المغربي ـ ابن علي ـ الذي كان في لندن في بداية العام 1790 إفرنجي وهو أمر ضاعف من حماس القائمين على الجمعية لمواصلة الجهود للكشف عن بلاد السودان الغربي والأوسط.

وفي عام 1796 إفرنجي تمكن الرحالة ـ مونغو بارك ـ Mungo Park البالغ من العمر 25 عاماً وبدعم من الجمعية الإنجليزية من الانطلاق من الشواطىء الغربية لإفريقيا لاكتشاف تمبكتو ونهر النيجر، وقد نجحت رحلته الأولى خاصة فيما يتعلق بتحديد مجرى نهر النيجر، وبعد عشر سنوات من عودته إلى بلاده عاد ثانية بهدف الإبحار عبر نهر النيجر لتتبع مجراه من البداية

إلى النهاية، ونجح في عام 1805 إفرنجي في الوصول إلى مدينة «سيجو» وكان هدفه العمل على عقد اتفاقيات تجارية مع ملوك وزعماء تلك المناطق بهدف ربط تلك الجهات سياسياً وتجارياً مع إنجلترا، غير أنه ارتكب خطأً فاحشاً أثناء مهمته تلك كلفه حياته نفسها عندما توهم أن الأهالي المصطفين على ضفتي النهر، المستغربين ظهوره بينهم، كانوا ينوون الغدر به، فأطلق النار عليهم وأصاب عدداً منهم، مما حدا بأولئك الأهالي بالرد عليه فغرق في النهر أثناء محاولته الفرار بجلده.

وبعد سنوات من المحاولة التي قام بها ـ لوكاس ـ والتي انتهت في مصراته الليبية وعلى الرغم من المعلومات الهامة التي قدمها عن دواخل ليبيا والصحراء وبعض مناطق السودان الغربي، قررت الجمعية الجغرافية مواصلة مهمتها، فقامت بالموافقة على طلب تقدم به رحالة ألماني هو «فريديك هورنمان» Federico Horneman الذي اقترح محاولة القيام بالتوغل داخل إفريقيا انطلاقاً من القاهرة عبر مرزق بالجنوب الليبي.

وهكذا انطلق هذه الرحالة في شهر ناصر «يوليو» 1797 إفرنجي باتجاه القاهرة مروراً بباريس التي تعرف فيها بتاجر تركي كانت له صلاة تجارية واسعة مع تجار ليبيا وتونس ومصر، وزوده هذا التاجر برسائل توصية عديدة لأصدقائه في مصر حاثاً إياهم على تقديم كافة التسهيلات الممكنة له بهدف استكمال مهمته العلمية. . . كما أوهمه.

وفي شهر الفاتح ـ سبتمبر ـ من نفس العام وصل «هورنمان» إلى الاسكندرية على ظهر باخرة، ومنها توجه إلى القاهرة، وشاءت الصدفة أن يقوم الفرنسيون في نفس ذلك العام وأثناء قيام هذا الرحالة بالاستعداد لمواصلة رحلته باتجاه مرزق بغزو بعض الأجزاء الشمالية من مصر، وهو أمر أدى إلى تأخير قيامه برحلته لعدة أشهر أخرى، على الرغم من أن هذا التأخير مكنه من مقابلة قائد الحملة الفرنسية على مصر ـ نابليون بونابرت ـ الذي زوده بالمزيد من المال وجواز سفر فرنسي لتسهيل مهمته.

وبعد تنسيق مع عدد من التجار الفزانيين، وبعد أن تنكر في زي تاجر مسلم، رافق قافلة غادرت القاهرة في 14 ـ 9 ـ 1798 إفرنجي باتجاه مرزق بالجنوب الليبي والتي كانت نقطة هامة في تجارة قوافل الصحراء، مروراً بسيوة بمصر وأوجلة في ليبيا، وهي رحلة أوصلته في نهاية المطاف، على الرغم من المصاعب التي اعترضته، إلى مرزق عاصمة فزان في تلك الفترة في 17 ـ 11 ـ 1798 إفرنجي وبذلك كان أول أوروبي يتمكن من تسجيل معلومات بصفة مباشرة عن تلك المنطقة، ومنها توجه إلى طرابلس، حيث قام بإرسال المعلومات التي حصل عليها إلى الجمعية اللندنية، ثم عاد إلى مرزق مرة ثانية، ومن هناك توجه رفقة قافلة إلى منطقة السودان الأوسط، حيث بلغ برنو، ومنها اتجه غرباً نحو النيجر حيث لقي حتفه هناك.

وعلى الرغم من أن خبر مقتل الرحالة ـ هورنمان ـ في منطقة السودان الغربي كان له وقع الصاعقة على الجمعية اللندنية واعتبر نكسة أخرى في جهودها لاستكشاف منطقة وسط وغرب إفريقيا، إلا أنها لم تتردد في الموافقة على قيام رحالة أوروبي آخر هو الأسباني «دومينغو ليبليك» Badia, y, Leblich Domingo لمحاولة أخرى لاستكشاف المنطقة.

كان ـ دومينغو ـ في زيارة إلى لندن في عام 1802 إفرنجي واجتمع مع عدد من المسئولين والشخصيات العلمية السياسية الإنجليزية وعاد إلى بلاده في العام التالي، ومن هناك، وفي 23 الصيف «يونيو» عبر مضيق جبل طارق باتّجاه طنجة، حيث قام وهو هناك بزيارات لعدد من المدن المغربية قبل أن يتمكن من ركوب «فرقاطة» ليبية كان يقودها ـ الريّس عمر ـ التي أقلته إلى طرابلس الغرب في 13 ـ 10 ـ 1805 إفرنجي، ومن طرابلس التي بقي فيها عدة أيام واطلع على ما يريد الاطلاع عليه في أرجائها، منها توجه إلى الاسكندرية بطريق البحر عبر قبرص ثم ارتحل إلى الحجاز ماراً ببلاد الشام، ومنها عاد على نفس الطريق باتجاه تركيا وعاد إلى لندن عبر رومانيا ليقدم تقريره للمسؤولين الذين قاموا بإرساله.

وقد اتخذ هذا الرحالة أثناء رحلته الطويلة هذه العديد من الأسماء العربية حتى يتمكن من إخفاء حقيقته وإتمام المهمة المكلف بها، فهو تارة. . حكيم. . وتارة الأمير. . وتارة ثالثة الفقيه. . ورابعة الحاج. . أما الاسم الذي اشتهر به أكثر من غيره فهو «علي بك العباسي» وألف هذا الرحالة بعد عودته كتاباً نال شهرة واسعة في تلك الفترة تحت عنوان «رحلة علي بك إلى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر، والعربية، وسوريا، وتركيا بين سنوات 1803 إلى 1807».

الطريف هنا. . إن هذا الرحالة الإسباني كتب جزءاً من مقدمة كتابه باللغة العربية وبخطه جاء فيها: «الحمد لله وهو العلي العظيم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، قل اللهم الحمد لله الذي هدانا الإيمان والإسلام وهدانا إلى الحجاز وإلى البلد الحرام، هذا كتاب الصلاح للأمير الحكيم، والفقيه الشريف، الحاج علي باي بن عثمان باي العباسي خادم بيت الدين الحرام».

وقد اتقن هذا الرحالة مهمته بشكل كامل، كما نجح تنكره الذي يبدو أنه قد أجاده بشكل أخفى حقيقته تماماً، خاصة وأنه كان يجيد اللغة العربية كتابة وقراءة، كما كان على دراية تامة بأغلب شعائر الدين الإسلامي، وكان يمارس فرائض الصلاة والصوم طيلة السنوات التي قضاها متنقلاً بين العرب ومعهم، وقام بمرافقة قافلة عربية من مصر أوصلته إلى بيت الله الحرام في مكة، حيث أدى مناسك الحج أسوة برجال القافلة التي رافقها، أما الوجه الذي أخفاه فهو ما كشف عنه هذا الرحالة علناً بعد عودته إلى إنجلترا في كتابه المذكور هو دعوته لدول أوروبا للقيام «بغزو بلاد الشمال الإفريقي والقضاء على الإسلام».

وفي هذه الفترة كان واضحاً أن الحكومة الإنجليزية قد استقر رأيها على بدء التفكير الجدي لاحتلال المزيد من الأراضي في القارة الإفريقية، وخاصة في المنطقة الغربية منها بعد بدء ظهور مؤشرات المساعي الفرنسية لاحتلال السواحل الشمالية لإفريقيا، ومن هنا ارتأى مسؤولو الحكومة الإنجليزية ضرورة تسخير عمل الجمعية الجغرافية لخدمة المخططات التي بدأ الإعداد لها لغرض احتلال إفريقيا.

وفي هذه الفترة تقدم للجمعية اللندنية مغامر آخر هو ـ الدكتور: جوزيف ريتشي ـ Joseph Ritchie الذي اقترح أن تنطلق رحلته باتجاه منطقة ما وراء الصحراء الكبرى من طرابلس الغرب لقرب موقعها من المناطق المستهدفة من جهة، ولتوفر الأمان على طرق القوافل التي تربطها بتلك الجهات من جهة أخرى.

وقد استدعى المسؤولون في وزارة الخارجية الإنجليزية هذا الرحالة إلى مقر الوزارة بلندن، وقاموا بتشجيعه على تنفيذ مهمته، كما طلبوا منه محاولة تسجيل كل ما تقع عليه عيناه أو يصل إلى سمعه في المنطقة المستهدفة بالكشف، وملاحظة أدق التفاصيل عن حياة سكانها والطرق المؤدية إلى المدن الهامة فيها، كما فرضت عليه الوزارة أن يصطحب معه أحد ضباط البحرية الإنجليزية العاملة في البحر المتوسط وهو ـ جورج فرنسيس ليون ـ George Francis Lyon ليدقق بنفسه المواقع وإحداثيات المدن والقرى والتضاريس.

وهكذا توجه الدكتور ريتشي مع مرافقه إلى طرابلس، وفيها حصلا على موافقة حاكمها ـ يوسف باشا القرهمانلي ـ ودعمه، إضافة إلى رسائل توصية منه إلى مندوبيه في الدواخل لتسهيل مهمتهما، وإزالة أية عقبات قد تعترض طريقهما، وقد تمكن الرجلان من مرافقة قافلة تجارية في 7 ـ 2 ـ 1819 إفرنجي كان يقودها ـ محمد المكني ـ الذي كان مندوباً عن باشا طرابلس في جباية الضرائب من فزان، وهو الذي حظي بشهرة واسعة في أوروبا كلها في تلك الفترة بسبب مصاحبته للعديد من الرحالة الأوروبيين الذين ارتادوا الدواخل الليبية ومنطقة السودان الغربي والأوسط في القرن التاسع عشر.

وفي مرزق التي وصلها الرجلان بعد ثلاثة أشهر تقريباً، لم يتمكن كلاهما من مواصلة الرحلة إلى نهر النيجر كما كان مخططاً من قبل، ولذلك استغل الرجلان فترة إقامتهما الطويلة في مرزق وإجادتهما للغة العربية وتنكرهما في أزياء التجار العرب من استطلاع المناطق المجاورة لمدينة مرزق، حيث جمعا معلومات هامة عنها وعن تجارتها وموقعها، إضافة إلى معلومات أخرى عن

واحة غدامس وتجارتها الرائجة مع تمبكتو وعلاقتها مع مناطق السودان الغربي بصفة عامة.

وفي 20 من شهر الحرث ـ نوفمبر ـ من نفس العام توفي الدكتور ـ ريتشي ـ في مرزق بعد مرض ألم به هناك، بينما واصل زميله الضابط ـ ليون ـ القيام بعملية الاستكشاف والبحث التي قدم من أجلها، وسهَّل له سكان المدينة وتجارها القيام بزيارات للعديد من مناطق الجنوب الليبي، وفي 25 ـ 3 ـ 1820 إفرنجي عاد ـ ليون ـ إلى طرابلس صحبة قافلة تجارية كانت عائدة من بورنو، ومنها توجه إلى بلاده.

وعلى الرغم من المصاعب التي واجهت رحلة ـ ريتشي/ ليون ـ وخاصة على أثر موت زميله الدكتور ريتشي المفاجىء، إلا أن المعلومات التي عاد بها ـ ليون ـ إلى لندن كانت معلومات تعرف لأول مرة في الغرب وخاصة تلك المتعلقة بالمناطق الواقعة جنوب مرزق وحتى أقصى الحدود الليبية من حيث الموقع والسكان وطبيعة المنطقة. . . الخ.

وفي العام التالي قررت «الجمعية الملكية الإنجليزية» التي أصبح هذا هو اسمها الرسمي بعد أن أدمجت في الجمعية السابقة، وبالتعاون مع الحكومة الإنجليزية التي بات واضحاً أن المعلومات التي يحصل عليها أولئك الرحالة تصب في أجهزتها الاستعمارية في نهاية المطاف، قررت إرسال بعثة استكشافية أخرى اختير لها هذه المرة ثلاثة أشخاص هم:

ـ الدكتور ـ ولتر أودني ـ DR: Walter Oudney.

ـ الكابتن ـ هيوج كلابرتون ـ CAP: Hugh Claperton.

ـ الميجر ـ دنهام دكسون ـ MAJ: Denham Dixon.

وانطلقت هذه البعثة الاستكشافية الثلاثية من طرابلس في أوائل عام 1823 إفرنجي ووصلت إلى مرزق في الثامن من شهر الطير «أبريل» من نفس العام، وعقب وصول أفراد البعثة مباشرة إلى تلك الواحة الصحراوية التي كانت محطة

هامة للقوافل التجارية الرابطة بين ما وراء الصحراء الكبرى والشمال الإفريقي، ارتأى أفرادها ضرورة الحصول على حراسة مسلحة لمواصلة رحلتهم باتجاه السودان الأوسط، ومن هنا كلفوا زميلهم ـ دنهام دكسون ـ للعودة إلى طرابلس ومخاطبة الباشا فيها لتوفير تلك الحراسة، ولم يتردد الأخير في الموافقة على طلب البعثة، وعاد ـ دنهام ـ بالحراسة المطلوبة إلى مرزق في نهاية شهر التمور من نفس العام.

وكان بقية أعضاء هذه البعثة قد استغلوا فترة غياب زميلهم في طرابلس فقاموا برحلات استكشافية في غرب فزان، وغات، وكان الدكتور ـ أودني ـ و ـ كلابرتون ـ أول رحالة أوروبيين يصلون إلى تلك المناطق وأول من يسجل معلومات وافية عنها بشكل مباشر، وعرفا من تلك المعلومات التي زودهم بها تجار وسكان المنطقة مدى متانة العلاقة التي تربط سكان الجنوب الليبي بشكل خاص بباقي أشقائهم في منطقة السودان الغربي والأوسط، وهي علاقات نُسجت خيوطها على مدى عشرات القرون السابقة.

وبعد عدة أشهر رحل أعضاء البعثة الثلاثية باتجاه السودان الأوسط حيث هدف الرحلة الأساسي، فمروا على ـ القطرون ـ ومنها إلى ـ تجرحي ـ ثم ـ بورنو ـ وبحيرة تشاد، وهنا انفصل ـ دنهام ـ عن باقي أعضاء البعثة فاتجه إلى الجنوب الشرقي من البحيرة لكشف نهر ـ شاري ـ Shari بينما اتجه «كلابرتون واودني» غرباً قاصدين النيجر عبر مناطق الهوسا، رفقة تاجر عربي من فزان يدعى «محمد الوردي» فوصلوا إلى ـ كوكا ـ Kuka الواقعة غرب بحيرة تشاد والتي كانت واحدة من بين المدن الإسلامية الهامة في المنطقة، ثم اتجها نحو إقليم ـ كانو ـ شمال نيجيريا حالياً في شهر أي النار «يناير» 1824 إفرنجي، وقبل وصول الرجلين إلى هدفهما، توفي الدكتور «أودني» عقب إصابته بمرض أودى بحياته في 12 الصيف «يونيو» من نفس العام، بينما تمكن زميله ـ كلابرتون ـ من زيارة مدينة «كانو» التاريخية التي وصفها فيما بعد بأنها «مدينة كبيرة كان يحيط بها سور ضخم به خمسة عشرة بوابة تقفل ليلاً، وبها سوق في غاية النظام مقسم

إلى أقسام كل منها تباع فيه سلع معينة» و«يشرف على السوق شيخ معيَّن من قبل سلطان كانو يجبي المكوس من التجار».

ومن كانو اتجه كلابرتون باتجاه الغرب إلى إقليم ـ سوكوتو ـ Sokoto غير أن حاكم هذا الإقليم منعه من مواصلة رحلته باتجاه النيجر، فعاد إلى طرابلس سالكاً نفس الطريق التي قدم منها مع زميله ـ دنهام دكسون ـ بعد أن التقى الرجلان مجدداً، وفي 22 أي النار «يناير» 1825 إفرنجي وصل الرجلان إلى طرابلس وعادا منها إلى بلادهما، مصحوبين برصيد هائل من المعلومات التي تعرف لأول مرة عن المناطق التي مرت عليها البعثة، وهي معلومات ساهمت في إثراء معارف أوروبا، وإنجلترا بشكل خاص، عن مناطق الجنوب الليبي، ومنطقة السودان الأوسط وبحيرة تشاد والأنهار التي تغذيها. . الخ.

غير أن الهدف الأساسي من الرحلة، وهو محاولة الحصول على توقيع سلطان سوكوتو على وثيقة مع الحكومة الإنجليزية يسمح بموجبها لإنجلترا بمرور تجارتها مع تلك المناطق، وهي الوسيلة التي فرضت بها هذه الدولة الاستعمراية هيمنتها وبطشها على العديد من مناطق إفريقيا، هذا الهدف لم يتحقق في رحلة كلابرتون الأولى.

وهكذا. . وعندما عاد إلى لندن كلفته وزارة المستعمرات الإنجليزية في العام التالي للعودة مرة أخرى للمنطقة، ولكن عن طريق مختلف هذه المرة هو الساحل الغربي لإفريقيا، فانطلق ـ كلابرتون ـ باتجاه ـ سوكوتو ـ مرة ثانية بهدف عقد المعاهدة مع سلطان ـ بللو ـ ورافقه في رحلته هذه التي بدأت من ساحل خليج غينيا رحالة إنجليزي آخر يدعى «ريتشادر لاندر» Richard Lander الذي كلفته وزارة المستعمرات بالسهر على راحة كلابرتون وخدمته.

ووصلت البعثة إلى ـ واوا ـ Wawa في نيجيريا حيث تعرف ـ لاندر ـ على أرملة أفريقية كانت زوجة لثري عربي كان يقيم هناك تدعى «زوما» ادّعى أنها لاحقته طويلاً طالبة الزواج منه، غير أنه رفض عرضها واتجه مع زميله نحو

هدف رحلتهم، فعبرا نهر النيجر واتجها إلى ـ كانو ـ التي وصلاها في 25 ـ 5 ـ 1826 إفرنجي ومنها اتجها إلى «سوكوتو» غير أنهما وجدا سلطانها يستعد للحرب مع سلطان بورنو، فلم يتمكنا من مقابلته.

وهناك أصيب ـ كلابرتون ـ بمرض لم يمهله طويلاً، فلقي حتفه في الثالث عشر من شهر الطير «إبريل» من عام 1827 إفرنجي ودفنه زميله في نفس المنطقة وعاد إلى بلاده حاملاً مذكرات كلابرتون وأغراضه الشخصية إلى وزارة المستعمرات الإنجليزية، حيث وصل لندن في شهر الطير «أبريل» من العام التالي.

وبما أن هدف الرحلتين لم يتحقق، فقد قررت وزارة المستعمرات الإنجليزية مرة أخرى إعادة إرسال الرحالة ـ لاندر ـ لنفس المنطقة في العام 1830 إفرنجي سالكاً نفس الطريق السابقة عبر الساحل الغربي لإفريقيا فوصل إلى ـ بادغري ـ Badagri شمال نيجيريا في أواخر شهر الربيع «مارس» من نفس العام، ثم توجه صحبة شقيقه «جون» الذي رافقه في رحلته تلك باتجاه ـ واوا ـ حيث زار ـ لاندر ـ الأرملة الثرية ـ زوما ـ ومنها اتجه إلى بلدة ـ يوري ـ على نهر النيجر، وتحقق من أن النهر تسير مياهه من الغرب باتجاه الشرق، وقاما بالأبحار نحو مصبه وعاد إلى إنجلترا في شهر الكانون «ديسمبر» 1831 إفرنجي.

ونتيجة للمعلومات التي حصل عليها ـ لاندر ـ منحته الجمعية الجغرافية اللندنية الوسام الذهبي تقديراً لخدماته، وأصدر كتاباً ضخماً عن رحلته في العام التالي تكوّن من ثلاثة أجزاء. وقد كان للمعلومات الهامة التي قدمها هذا الرحالة وسابقه ـ كلابرتون ـ عن المنطقة، وحسب اعترافات المسؤولين الإنجليز أنفسهم أكبر الأثر في تدفق الشركات الاحتكارية الإنجليزية والمغامرين الأوروبيين الباحثين عن الثروة إلى إفريقيا، حتى لو كانت على حساب قتل الملايين، والذين تدفقوا كالسيل على السواحل الغربية لإفريقيا ودلتا نهر النيجر فيما بعد، وهو أمر أدى لاستتباعه بوصول جيوش الاحتلال عقب ذلك مباشرة.

12

الصحراء.. لم تعد غامضة

في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وصل إلى طرابلس الرحالة الإنجليزي ـ الميجر ـ الكسندر جوردن لينغ ـ Alessandro Gordon Laing وتحديداً في شهر الصيف «يونيو» 1825 إفرنجي وغادرها بعد أن تزوج من ابنة القنصل الإنجليزي في طرابلس الغرب «العقيد وارنجتون» باتجاه مدينة تمبكتو في 16 ـ 8 1826 إفرنجي بدعم مباشر وتأييد واسع من وزير المستعمرات الإنجليزية في تلك الفترة «اللورد، باترست» Lord Batturst الذي رشحه للقيام بهذه المهمة بناءً على خدماته السابقة كضابط في المستعمرات الإنجليزية في الهند الشرقية، وسيراليون وساحل العاج.

وقد تمكن هذا الرحالة المغامر وبعد رحلة طويلة في الصحراء مرَّ فيها على واحة غدامس، وواحة عين صالح، صحبة الشيخ ـ باباني ـ الذي كان على دراية واسعة بالمدينة الغامضة تمبكتو، والطرق المؤدية إليها بعد إقامة طويلة فيها استمرت لأكثر من عقدين من الزمن، تمكن من الوصول فعلاً إلى تمبكتو بعد رحلة معاناة قاسية وسط الصحراء الكبرى كاد خلالها أن يفقد حياته أكثر من مرة، وأقام ـ لينغ ـ في المدينة التي طالما حلم بالوصول إليها ومن أجلها تكبد مشاق السفر والغربة، لمدة أيام قبل أن يجبر على مغادرتها من قبل سكان المدينة

بعد الإشتباه في أمره ووجوده ميتاً بعد ذلك بأيام في ظروف غامضة، غير بعيد عنها، وذُكر أن مذكراته التي كتبها أثناء الرحلة قد ضاعت ولم يعثر لها على أثر منذ ذلك التاريخ، وإن كان الإنجليز، وبالأخص قنصلهم في طرابلس الذي زوج ابنته ـ إمّا ـ من الرحالة المغامر في طرابلس وقبل يومين فقط من توجهه إلى تمبكتو، قد اتهموا الفرنسيين وقنصلهم في طرابلس بالذات بأنه كان السبب في مقتل لينغ وضياع مذكراته أو سرقتها.

وقد أدّت حادثة مقتل هذا الرحالة بالقرب من تمبكتو لتوتر شديد في العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا وإنجلترا، وبشكل كاد أن يؤدي إلى قطيعة دبلوماسية بينهما، وحاول العقيد ـ وارنجتون ـ القنصل الإنجليزي بطرابلس في تلك الفترة توريط والي طرابلس ـ يوسف باشا القره مانلي ـ في حادثة القتل تلك بعد أن اتهم رئيس وزرائه ـ الدغيّس ـ بمساعدة القنصل الفرنسي في تدبير عملية مقتل الرحالة الإنجليزي وسرقة مذكراته.

وعلى الرغم من افتضاح عدم مصداقية تلك الادعاءات الإنجليزية، إلا أن الحادث وتّر بشكل كبير تصرفات القنصلين الإنجليزي والفرنسي بطرابلس، وأدى إلى حدوث صراع هائل بينهما كان خلاله كلاهما يحاول أن يقطع الطريق تماماً عن محاولات الطرف الآخر لارتياد الصحراء الكبرى ومدينة تمبكتو بالذات، إضافة إلى أن كليهما كان يسعى وبشكل محموم كسب ود باشا طرابلس وتوظيف إمكانياته ونفوذه لتسهيل توغل الرحالة التابعين لدولته باتجاه دواخل السودان الغربي والأوسط.

وقد أدى مقتل ـ لينغ ـ بالقرب من تمبكتو، والأزمة الدبلوماسية التي أثارها ذلك الحادث في العلاقات بين فرنسا وإنجلترا، إلى توقف الرحلات الاستكشافية التي تقوم بها الجمعية الجغرافية الملكية بلندن لحقبتين تقريباً، قبل أن تعاود هذه الجمعية نشاطها مرة أخرى على يد مغامر إنجليزي آخر هو ـ جيمس ريتشاردسون ـ James Richardson الذي وصل إلى طرابلس في شهر الماء «مايو» عام 1845 إفرنجي وفي 12 هانيبال ـ أغسطس ـ من نفس العام

غادرها باتجاه غدامس صحبة قافلة تجارية كانت تتجه إلى هناك، ولدى وصوله علم باستحالة استمرار رحلته إلى السودان الغربي بسبب التوتر الذي أحدثه مقتل مواطنه «السكندر لينغ» في المنطقة كلها خاصة بعد تدخل باشا طرابلس في إجراء تحقيقات واسعة شملت بعض حكام ووجهاء تجار غدامس لمعرفة الحقيقة حول مقتل ذلك الرحالة، ومن هنا قرر ـ ريتشاردسون ـ تغيير خط رحلته باتجاه غات ومنها إلى فزان ومرزق عائداً إلى طرابلس بعد ذلك، ومنها إلى بلاده بعد رحلة استغرقت عاماً كاملاً في تلك المناطق.

وفي عام 1845 إفرنجي أيضاً كان رحالة ألماني آخر قد تطوع للقيام برحلة استكشافية تشمل السواحل الشمالية لإفريقيا ومن ثم التوغل إلى مناطق السودان الأوسط وبحيرة تشاد وهو الألماني الدكتور ـ هنريش بارث D:Henrico Barth ـ الذي تلقى وقبل قيامه برحلته دراسات مكثفة في علوم التاريخ والآثار والجغرافيا قبل انتقاله من موطنه ألمانيا إلى لندن.

وفي شهر أي النار ـ يناير ـ من ذلك العام توجه الدكتور بارث إلى لندن، حيث اجتمع بعدد من المسؤولين في الحكومة الإنجليزية، ثم أمضى عدة أسابيع في فرنسا وإسبانيا قبل أن ينتقل إلى المغرب، ومنها بدأ رحلة طويلة شملت كافة السواحل الشمالية لإفريقيا عبرالجزائر وتونس وليبيا، وعلى الحدود الليبية المصرية تعرض ـ بارث ـ لهجوم من قبل سكان المنطقة في بداية شهر ناصر «يوليو» 1846 إفرنجي نتج عنه إتلاف كافة المذكرات التي كانت معه، والتي دوَّن فيها انطباعاته والمعلومات التي حصل عليها، إضافة إلى المعدات التي كان يستعملها في الرصد وتحديد المواقع، وتُرك ليمضي في حال سبيله، فواصل رحلته باتجاه مصر ومنها عاد إلى إنجلترا بعد أن تخلى «مؤقتاً» عن فكرة التوجه إلى وسط إفريقيا عبر النيل.

وفي لندن، وأثناء هذه الفترة، كان ـ ج. ريتشاردسون ـ والذي سبق وتحدثنا عن رحلته إلى غات وغدامس ومرزق بعد أن تخلى عن فكرة التوغل

نحو السودان الغربي، قد عرض على الحكومة الإنجليزية التي أثنت على المعلومات التي قدمها عن رحلته السابقة للدواخل الليبية فكرة القيام برحلة أوسع تشمل دواخل السودان الغربي انطلاقاً من طرابلس أيضاً.

وقد قبلت الحكومة الإنجليزية الفكرة فوراً، ورأت ضرورة أن يرافقه خلالها الدكتور ـ بارث ـ الذي نجح في الحصول على معلومات هامة عن الساحل الشمالي لإفريقيا على الرغم من ضياع جزء كبير من مذكراته على الحدود الليبية المصرية.

وعلى الرغم من اعتذار الدكتور ـ بارث ـ في بداية الأمر عن القيام بهذه المهمة الجديدة، إلا أنه عاد ووافق على فكرة انضمامه للبعثة الاستكشافية الجديدة، بعد أن ألحت عليه في ذلك الجمعية الجغرافية الملكية في لندن والمسؤولين الإنجليز الذين قدّروا أهمية المعلومات التي قدمها من قبل، واشترط ـ بارث ـ لموافقته على أن يقتصر نشاط البعثة على «الطابع العلمي البحت» وبشرط أن ينضم إليها صديقه الدكتور ـ أودولف أوفيرويج ـ D:Adolfo Overweg الذي زكته الجمعية الجغرافية في برلين باعتباره عالماً في الجيولوجيا.

وهكذا وصل الرحالة الثلاثة إلى تونس بحراً في شهر أي النار «يناير» 1850 إفرنجي ومنها توجهوا براً إلى طرابلس، وبعد عدة جولات استطلاعية قاموا بها في العديد من المناطق القريبة من طرابلس توجهوا جنوباً عبر غريان، مزدة، ومنها إلى أدري، ثم وصلوا مدينة ـ جرمة ـ التاريخية في فزان ومنها إلى مرزق حيث مكثوا هناك، عدة أسابيع قبل أن يواصلوا رحلتهم عبر ـ غات ـ وجبال أزقر ـ باتجاه السودان الأوسط، وهناك وقبل أن يصلوا إلى هدفهم، لقي اثنان من أعضاء البعثة حتفهم وهما ـ ريتشاردسون ـ الذي توفي أثر مرض ألم به في ـ نغروتو ـ Ngurutu في الرابع من شهر الربيع «مارس» 1851 إفرنجي وتبعه زميله ـ أوفيرويج ـ بفترة قصيرة بنفس الداء، بينما كتبت الحياة للدكتور ـ بارث ـ الذي واصل رحلته باتجاه تمبكتو فوصلها في العام 1853 إفرنجي ووجد هناك

أن المعلومات التي سبق للفرنسي ـ رينيه كالييه ـ أن أعطاها للمدينة الغامضة قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً كانت صحيحة في أغلبها، وبعد ستة أشهر عاد إلى ـ كوكا ـ وبحيرة تشاد، حيث التقى بعالم الطبيعة والفلك الألماني ـ أدوارد فوغل ـ الذي أرسل للبحث عن البعثة التي كان يعتقد أنها قد ضاعت في بر السودان، رفقة عدد من الحراس المحليين، غير أن ـ فوغل ـ قتل في واداي، ـ كما سنرى بعد قليل ـ بينما عاد الدكتور ـ بارث ـ إلى طرابلس التي وصلها عام 1855 إفرنجي بعد خمس سنوات ونصف من مغادرته لها، ومنها عاد إلى بلاده، بعد أن تمكن من جمع كم هائل من المعلومات عن المنطقة رغم المعاناة والمصاعب التي واجهها.

وقد حدث أنه في أثناء غياب البعثة الثلاثية السابقة وسط الصحراء الكبرى، وبعد وصول نبأ موت رئيس البعثة الاستكشافية ـ ريتشاردسون ـ إلى لندن ارتأت الحكومة الإنجليزية دعم البعثة برحالة جديد ليحل محله، «قبل أن تعلم الجمعية بموت الرحالة الآخر ـ أوفيرويج ـ» وهكذا تقرر إرسال المتطوع الألماني الدكتور ـ إدوارد فوغل ـ D: Eduardo Vogel للحاق بالبعثة المتوغلة في منطقة السودان الأوسط، وهكذا وصل ـ فوغل ـ إلى تونس ومنها براً إلى طرابلس في أواخر العام 1852 إفرنجي، وقبل أن يغادر تونس كان خبر وفاة العضو الثاني في البعثة الثلاثية السابقة وهو ـ أوفيرويج ـ قد وصل لندن أيضاً.

وفي طرابلس استطاع هذا الرحالة الجديد أن يكوّن علاقة جيدة مع «الحاج هاشم» أحد أقرباء سلطان بورنو بالسودان الأوسط الذي كان عائداً لتوه من رحلة إلى بلاد الحجاز، واتفق معه على مرافقته في رحلة العودة إلى بلاده، غير أن حادثاً وقع له في طرابلس أدى إلى تأخره عن مرافقة قافلة الحاج هاشم، وهكذا تخلف في طرابلس حتى منتصف العام التالي عندما تمكن من مصاحبة قافلة أخرى إلى مرزق صحبه فيها قنصل إنجلترا في طرابلس نجل «العقيد وارنجتون» والذي عاد إلى طرابلس بينما واصل ـ فوغل ـ رحلته صحبة قافلة أخرى كانت متجهة إلى بحيرة تشاد عن طريق مرزق ـ تجرحي ـ بلما ـ قبل أن يلاقي حتفه

في واداي عام 1856 إفرنجي، كما رأينا قبل قليل بعد اتضاح حقيقة المهمة التجسسية التي كان يقوم بها في تلك المنطقة وبعد التقائه بالدكتور ـ بارث ـ وعلى الرغم من تستره باسم عربي هو أيضاً.

وفي عام 1861 إفرنجي وبسبب الظروف الغامضة التي اكتنفت مصير الرحالة ـ فوغل ـ قبل أن تصل أنباء مصرعه في واداي، استجابت الجمعية الجغرافية في برلين لرغبة شاب ألماني متحمس للقيام برحلة بحث عن حقيقة المصير الذي آل إليه فوغل بالسفر إلى المنطقة التي اختفى فيها، سالكاً طريقاً جديدة تبدأ من بنغازي على الساحل الشرقي لليبيا.

وهكذا وصل الدكتور ـ موريزيو بورمان ـ Maurizio Beurmann إلى بنغازي في عام 1861 إفرنجي ومنها تابع طريقه في الثاني عشر من شهر النوار «فبراير» 1862 إفرنجي باتجاه مرزق عبر واحات أوجلة وجالو، وزلة، وهي طريق لم يسلكها أي أوروبي من قبل، ثم توجه جنوباً باتجاه السودان الأوسط، غير أنه لقي نفس المصير الذي لقيه سلفه وقتل في نفس المنطقة ـ وادي ـ عام 1863 إفرنجي.

وفي نفس العام 1861 إفرنجي كلفت الجمعية الجغرافية في لندن بالتعاون مع الجمعية الجغرافية في برلين بألمانيا الدكتور ـ جيرهارد رولفس ـ D: Gerhard Rohlfs لاستكشاف المنطقة الشمالية من إفريقيا لإثراء معلومات الجمعيتين عن تلك المناطق «كما كان يتم الادعاء»، وهكذا توجه الرحالة الألماني إلى المغرب، حيث أمضى هناك قرابة الثلاثة أعوام زار خلالها منطقة جبال أطلس، ثم واحات الجنوب الجزائري، ثم غدامس، قبل أن يصل إلى طرابلس، وقد تعرضت حياته للخطر عديد المرات كاد في إحداها أن يقتل في جبال أطلس بعد أن اشتبه سكان تلك المنطقة في حقيقة مهمته التجسسية لولا تدخل أمير مراكش وإنقاذه في اللحظة الأخيرة، وفي حادثة أخرى أطلقت عليه النار جنوب المغرب ولولا تدخل جماعة من أهالي المنطقة الذين أسعفوه على مدى شهرين لكانت جثته قد ظلت هناك حتى تحللت.

وقد انتحل ـ رولفس ـ لنفسه اسماً عربياً هو «مصطفى النمسي» ولبس لباس المسلمين وحاول تقليد عاداتهم لإخفاء حقيقته، وزاد في تنكره عندما شعر بتوجس أهالي المناطق التي مر عليها من المغرب حتى ليبيا، فانتحل صفة الطبابة، وبدأ يداوي الناس نظير مقابل من المال ليتمكن من الإنفاق على رحلته.

وقد وصل ـ رولفس ـ في الرحلة الأولى حتى بلدة ـ عين صالح ـ جنوب الجزائر، وكان ينوي مواصلة رحلته باتجاه ـ تمبكتو ـ غير أنه عدل عن هذه الفكرة بسبب نقص أمواله التي رأى أنها لا تكفي لتأجير الجمال اللازمة للتوجه جنوباً، وهكذا قرر التوجه بدلاً من ذلك نحو طرابلس.

ولأهمية المعلومات التي حصل عليها ونشرها في كتاب حمل عنواناً طويلاً هو «رحلة عبر المغرب وصعود الأطلس الكبير واكتشاف واحات ـ تافليت ـ و ـ توات ـ و ـ تيدكلت ـ والرحلة عبر الصحراء الكبرى مروراً بغدامس» قرر العودة مرة أخرى إلى المنطقة لمحاولة استكشاف وسط السودان، وهو قرار أيده فيه عدد من المسؤولين الألمان، وهكذا وفي شهر الربيع عام 1865 إفرنجي وصل ـ رولفس ـ مرة أخرى إلى طرابلس وغادرها بعد شهرين 20 ـ 5 ـ 1865 إفرنجي باتجاه غدامس على الحدود الغربية لليبيا بعد أن تمكن من إقناع بعض كبار تجار الطوارق بمساعدته في الوصول إلى تمبكتو، غير أنه، ومرة أخرى، لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد منها إلى مزدة ومنها اتجه جنوباً إلى فزان عبر جبال الهروج السوداء وسط ليبيا، ووصل مرزق في الثامن والعشرين من شهر التمور من نفس العام، وبعد خمسة أشهر قضاها في المدينة غادرها في الخامس والعشرين من شهر الربيع «مارس» 1866 إفرنجي باتجاه ـ واداي ـ و ـ كوكا ـ عاصمة سلطنة بورنو، بعد أن اصطحب معه أشهر مرافق للرحالة الأوروبيين في تلك الفترة وهو المواطن الليبي ـ محمد القطروني ـ والذي حاز على شهرة واسعة في أوروبا لمرافقته للرحالة الألماني ـ هنريش بارث ـ في رحلته الشهيرة من طرابلس إلى تمبكتو والتي استمرت خمس سنوات من عام 1850 إفرنجي إلى عام 1855

إفرنجي كما نشرت صوره مع أولئك الرحالة في العديد من صحف أوروبا.

ووصل ـ رولفس ـ إلى ـ كوكا ـ وغادرها في منتصف شهر الكانون «ديسمبر» 1866 إفرنجي ومر بإقليم ـ سوكوتو ـ شمال نيجيريا حالياً، وبعد أدائه لبعض المهام التي كلفه بها قادة المستعمرة الإنجليزية التي أقيمت في تلك الفترة في ـ لوكوجه ـ بنيجيريا، واصل رحلته باتجه ـ لاغوس ـ على المحيط الأطلسي، ومنها إلى إنجلترا في 2 ـ 7 ـ 1867 إفرنجي بعد رحلة استغرقت عامين قطع فيها مسافة تزيد على خمسة آلاف كلم.

وقد نشر ـ رولفس ـ بعد عودته ملاحظاته وانطباعاته في كتاب حمل عنوان «عبر إفريقيا» Quer Durch Afrika «قام مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بترجمته للعربية» وقد حظي هذا الرحالة وكتابه بشهرة عالمية واسعة عقب نجاحه في المهمة التي كلف بها، وبسبب ذلك حصل على «الوسام الذهبي» أعلى أوسمة الجمعية الجغرافية اللندنية، كما منح درجة الدكتوراه الفخرية من إحدى الجامعات الألمانية.

وبسبب هذه الشهرة التي حصل عليها الكتاب في كامل أنحاء أوروبا استقبله ملك بروسيا، وكلفه بمرافقة الجيش الإنجليزي في حملة ضد الحبشة اشترك فيها 40 ألف عسكري كان هدفها تحرير بعض المسيحيين المعتقلين بها، كما تم الادعاء وبعد معارك شرسة مع قوات نجاشي الحبشة انتهت بانتحار الأخير لفشله في صد الغزو عن بلاده، عاد «رولفس» إلى بلاده بعد ذلك حاملاً معه قطعة أثرية نادرة سرقت من بلاط النجاشي الحبشي، اتضح فيما بعد أنها ـ تاجاً ذهبياً ـ يعود إلى عهد سيدنا سليمان عليه السلام، فأهداه إلى ملك بروسيا والذي أهداه بدوره إلى ملكة إنجلترا.

ومرة أخرى كلفه ملك بروسيا بنقل هدايا منه إلى الشيخ ـ عمر الكانمي ـ سلطان برنو بتشاد، هي عبارة عن كرسي للعرش محلى بالذهب وعدة أشياء أخرى ثمينة كعربون صداقة، غير أن رولفس وبعد وصوله إلى تونس ارتأى أن

يكلف بمهمة توصيل تلك الهداية إلى أحد أبناء موطنه ألمانيا وهو ـ دوت غوستاف ناختيغال ـ Dott Gustav Nachigal وهو شاب ألماني كان يعمل طبيباً لدى بلاط حاكم تونس في تلك الفترة، والذي لم يتردد في الانطلاق لأداء المهمة في شهر النوار 1869 إفرنجي بينما توجه ـ رولفس ـ باتجاه الشرق على امتداد الساحل الليبي، فزار بنغازي وشحات ومنها توجه إلى سيوه جنوب مصر وعاد منها إلى الاسكندرية ومنها إلى بلاده، حيث أصدر هناك كتابا جديداً حمل عنوان «من طرابلس إلى الاسكندرية».

وصادفت عودته إلى ألمانيا اندلاع الحرب الألمانية الفرنسية في الألزاس واللورين، عامي 1870 ـ 1871 إفرنجي فكلفته وزارة الخارجية الألمانية للقيام بمهمة تحريضية ضد الفرنسيين المحتلين للجزائر، هدفها إثارة القلاقل للقوات الفرنسية المحتلة للجزائر، بحيث تُجبر فرنسا على سحب المزيد من القوات من فرنسا لدعم جنودها في الجزائر، وقام بالمهمة فعلاً في تونس بالتعاون مع أحد المستشرقين من أبناء جلدته، غير أن الألمان وبعد نجاحهم في فرض سيطرتهم على الحدود مع فرنسا قرروا إنهاء مهمة رولفس وزميله في تونس فعادا إلى بلادهما، ليكلف رولفس بعد ثلاثة أعوام أخرى بالتوجه إلى واحة ـ الكفرة ـ بليبيا انطلاقا من مصر، غير أن مهمته فشلت فعاد إلى بون مرة أخرى.

وفي عام 1878 إفرنجي وصل رولفس مرة أخرى إلى طرابلس الغرب في زيارة هي الرابعة له رفقة زوجته وعدد من العلماء كانوا جميعاً أفراد بعثة هدفها اختراق الصحراء، ومنها الوصول إلى الكونغو، وترك الرحالة الألماني زوجته في طرابلس في ضيافة قنصل إيطاليا، بينما توجه مع بعثته إلى الكفرة عبر سوكنة وزلة، وأوجلة وجالو، وهوجم في تلك المناطق وكاد يفقد حياته لولا تدخل بعض أبناء المنطة لإنقاذه في آخر لحظة، حيث تم إيصاله إلى بنغازي في شهر التمور عام 1879 إفرنجي ومنها إلى طرابلس ثم ألمانيا.

وكلف «رولفس» فيما بعد بالعديد من المهام الدبلوماسية في الحبشة

وزنجبار، غير أن ما يهمنا هنا توضيحه هو أن هذا الرحالة لم يخف صراحة دعوته للدول الأوروبية احتلال الشمال الإفريقي والصحراء الكبرى، وطلبه صراحة من حكومة بلاده احتلال ليبيا والصحراء الممتدة عبرها جنوباً، بل أنه لم يتورع في الإعلان صراحة «ضعوا تحت أمرتي 80 عسكريا وبهم سأحتل الأجزاء الشرقية من الصحراء الكبرى بما فيها واداي».

كما شارك هذا الرحالة في مؤتمر استعماري دعا إلى عقده ملك بلجيكيا في عام 1876 إفرنجي وشارك فيه العديد من الرحالة الأوروبيين ممن تمكنوا من ارتياد الصحراء الكبرى ومناطق السودان الأوسط والغربي وجمعوا معلومات عنها، وكان ذلك المؤتمر الذي تمت فيه مناقشة الكيفية التي يمكن بها لأوروبا احتلال الأجزاء التي لم تحتل بعد من إفريقيا، هو أساس المؤتمر الذي عقد بعد ذلك في عامي 84 ـ 1885 إفرنجي ببرلين وتم فيه تقسيم القارة الإفريقية رسمياً بين الدول الأوروبية الاستعمارية.

أما الرحالة الألماني الآخر ـ ناختنيغال ـ فقد انطلق صحبة ـ محمد القطروني ـ ورجل إيطالي مغامر من طرابلس صحبة قافلة من ثمانية جمال حملت هدايا ملك بروسيا لسلطان بورنو في 17 ـ 2 ـ 1869 إفرنجي باتجاه بورنو عبر بني وليد ـ مرزق، والتي التقى فيها بالأميرة الهولندية «الكساندرينا تينه» والتي كانت تقوم بدارسة لتلك المنطقة وكانت تعتزم التوجه إلى تمبكتو من هناك، غير أنها قتلت بالقرب من مرزق.

ووصل ناختنيغال إلى بورنو في العام التالي بعد أن أدى مهمته، وتمكن من جمع المزيد من المعلومات عن المنطقة شملت نهري شاري وأوبنجا، ووصل إلى واداي ومنها إلى دارفور والخرطوم عاصمة السودان حالياً، وبعد ست سنوات عاد إلى بلاده عبر مصر وحصل على «الوسام الذهبي» للجمعية الجغرافية الإنجليزية.

وقد تنقل هذا الرحالة كغيره من الرحالة الأوروبيين باسم عربي هو

«إدريس أفندي» وبلباس عربي كامل، ولولا ذلك لما تمكن من دخول المنطقة والاطلاع عليها.

وبعد ذلك وصل إلى المنطقة رحالة نمساوي يدعى «أوسكار لنز» والذي تمكن من زيارة منطقة غرب إفريقيا، ثم كلفته «الجمعية الإفريقية الألمانية» للقيام بالمزيد من الأبحاث وجمع المعلومات عبر منطقة المغرب الأقصى، وهي مهمة أوصلته إلى ـ تندوف ـ بالصحراء الغربية للجزائر، ومن هناك رافق قافلة باتجاه تمبكتو التي وصلها في عام 1880 إفرنجي وعاد إلى وطنه بعد قضاء عدة أسابيع في تلك المدينة الغامضة عبر السنغال.

وعلى الرغم من تواصل الرحلات الاستكشافية لمنطقة الصحراء الكبرى على مدى السنوات اللاحقة، إلا أن أهميتها انعدمت تقريباً بوصول القوات الفرنسية إلى تمبكتو عام 1894 إفرنجي وفرض الاحتلال عليها، وهو احتلال أشعل المنطقة بكاملها بالمقاومة الشعبية المسلحة التي خاضها أبناؤها ضد الغزاة الزاحفين المدججين بمختلف صنوف الأسلحة الفتاكة والمدمرة، وهي الأسلحة التي حسمت في نهاية المطاف نتائج الملاحم البطولية التي قام بها سكان نهر السنغال وتمبكتو، وغاو، وجنى، وعلى طول امتداد نهر النيجر، وبحيرة تشاد، وسوكوتو، حسمت لصالح المستعمرين الفرنسيين الذين أبادوا وفتكوا بعشرات آلاف من المجاهدين الأبطال الذين سطروا بدمائهم أروع ملاحم الفداء والتضحية دفاعاً عن دينهم وأوطانهم وعشائرهم.

ومع اعترافنا بشجاعة وروح المغامرة التي تحلى بها أولئك الرحالة الأوروبيون في ارتياد مناطق لم يكن العالم كله يعرف عنها شيئاً، باستثناء ما قدمه بعض المؤرخين العرب من معلومات عنها، وما كان يقدمه تجار القوافل العرب والأفارقة الذين ارتادوا هذه المناطق واختلطوا مع بعضهم البعض عبر حقب طويلة من الزمن.

واعترافنا أيضاً بالأهمية البالغة التي أضافتها المعلومات التي قدمها أولئك

الرحالة عن الصحراء الكبرى ومنطقة السودان الغربي والأوسط، وما فيها من أقوام ومدن، وواحات وقبائل، سجلت جميعاً على خرط العالم منذ ذلك الوقت.

مع اعترافنا بكل ذلك، إلا أنه يجب أن لا ننسى أو نغفل في نفس الوقت، بأن أولئك الرحالة وعلى الرغم من اقتصار بعضهم على النواحي العلمية والجغرافية والتاريخية في أبحاثهم ودراساتهم، كان الغالبية منهم قد قدَّموا بوعي أو بدونه معلومات هامة عن المنطقة استفاد منها ووظفها السياسيون والعسكريون في بلدانهم لوضع مخططات احتلالهم لإفريقيا فيما بعد، وكانت تلك المعلومات من أهم المرتكزات التي بدأ التحرك الاستعماري المسلح على ضوئها لفرض الهيمنة والتسلط الاستعماري الذي نكبت به إفريقيا كلها في القرن التاسع عشر، وتم استكماله في نهاية ذلك القرن وبداية القرن الموالي، وهي هيمنة وتسلط نهب خلاله المستعمرون الأوروبيون كل ما طالته أيديهم من خيرات القارة البكر، ولم تبق شركاتهم الاحتكارية شيئاً إلا ونهبته من أفواه الأفارقة وسخرته لصالح رفاهية ونمو الإنسان الغربي في أوروبا.

13

نهبـوا كل شيء

حقيقة ما أشبه الليلة بالبارحة «كما يقال» فالاستعمار الصليبي الحاقد الذي نراه هذه الأيام وهو يلجأ لتصدير أزماته الداخلية إلى خارج حدوده، تارة لكسب أصوات ناخبين، وتارة لمداراة عجزه عن مواجهة المشاكل المتراكمة التي تعصف بداخله، هو نفسه الاستعمار الذي رأته الدنيا في القرن التاسع عشر الإفرنجي، والذي كان يلجأ لنفس الحجج والذرائع للهرب من أزماته الداخلية، ولـم يكن يهم هذا المستعمر الحاقد مدى الدمار والخراب الذي يلحقه بغيره من الشعوب، طالما أن مثل هذا العمل يضر غيره ويلهي داخله عن مشاكله.

والمتتبع للتاريخ بصفة عامة سيجد دون عناء أمثلة واضحة على ذلك سواء في القرون الماضية، أو حتى في الوقت الحاضر، ولعل أصدق مثل يمكن ملاحظته في هذا الصدد، ما فعلته فرنسا في الصحراء الكبرى ومنطقة غرب وشمال إفريقيا عقب هزيمتها في أوروبا على أيدي الألمان، واحتلال أجزاء من أراضيها في الألزاس واللورين عام 70/ 1871 إفرنجي وهو احتلال، وعندما عجزت الحكومة الفرنسية عن إنهائه واستعادة ما سلب منها من أراضي، وبسبب تنامي الاحتجاجات الداخلية في فرنسا على هذه الهزيمة، ارتأت الحكومة الفرنسية يومها وبتأييد من المحتلين الألمان أنفسهم الذين قاموا بتشجيعها وغض

النظر عن تطلعاتها الاستعمارية لإلهائها في مشاكل وصراعات بعيدة عن منطقة الحدود وعن أوروبا بكاملها، ارتأت الحكومة الفرنسية أن الوقت قد حان فعلاً لإخراج أحلامها التوسعية القديمة في السيطرة على بعض دول جنوب المتوسط من أدراجها وبدء عملية تنفيذها على أرض الواقع.

وقد كانت فرنسا، ومنذ منتصف القرن السادس عشر الإفرنجي، لها وجود فعلي في بعض مناطق غرب إفريقيا من خلال تلك التجارة القذرة التي دشنها الأوروبيون في القرن الخامس عشر الإفرنجي، وهي تجارة الرقيق واصطياد أبناء إفريقيا من على السواحل الغربية والجنوبية لإفريقيا، بهدف تصديرهم غصباً عن إرادتهم ومشيئتهم وفي أبشع عملية غير إنسانية عرفتها البشرية على مدى تاريخها كله باتجاه الأراضي الجديدة في الأمريكتين.

وكان هذا التواجد الفرنسي موجوداً بالفعل من خلال «شركة السنغال الملكية» عام 1697 إفرنجي والتي اتخذت من مدينة «سان لويس» على ساحل السنغال وقرب مصب نهرها على المحيط الأطلسي مقراً لها، كما كان لفرنسا وجود مماثل على ساحل غينيا وساحل العاج، بينما كانت كافة مناطق دواخل تلك الجهات مغلقة تماماً أمام أي توغل فرنسي.

وقد أصيبت الأحلام الفرنسية في التوسع وفرض الاحتلال بنكسة بين سنوات 1795 إلى 1814 إفرنجي أثناء الحرب التي عرفت باسم «الحروب النابوليونية» عندما سقطت أغلب المناطق والنقاط التي كان يوجد فيها الفرنسيون على الساحل الغربي لإفريقيا في أيدي الإنجليز، وهو أمر لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما اتفقت الدولتان في «مؤتمر ڤيينا» عام 1815 إفرنجي والذي تم فيه تقسيم أوروبا، على إعادة كافة مناطق النفوذ الفرنسية السابقة لفرنسا.

ولم تتخذ فرنسا سياسة توسيعية حقيقية في إفريقيا باستثناء احتلالها للجزائر عام 1831 إفرنجي، إلا بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الإفرنجي، وخصوصاً بعد هزيمتها أمام ألمانيا، وهي الهزيمة التي استغلها القادة

الفرنسيون في العمل على توسيع نفوذهم خارج القارة الأوروبية نفسها.

وبسبب التطاحن الاستعماري الشرس للاستحواذ على القارة السمراء بكاملها وتسخير خيراتها لصالح الإنسان الأوروبي والشركات الاحتكارية الأوروبية، هذا التطاحن ارتأت الدول الأوروبية ضرورة العمل على تنظيمه في مؤتمر برلين أعوام 84/ 1885 إفرنجي قبل أن يستفحل ويصبح صراعاً مسلحاً بين الدول الأوروبية نفسها، وهو أمر باركه بابا الفاتيكان نفسه، وأعلن تأييده للمؤتمرين من أجل تنظيم وتنسيق عملية احتلال القارة الإفريقية، من هنا انطلقت حمّى الاستحواذ على القارة الإفريقية من عقالها دفعة واحدة، ولم تمض سوى سنوات قليلة لا تتعدى العشرين عاماً، حتى أصبحت القارة بكاملها تقريباً واقعة فعلاً تحت الاحتلال الأجنبي، ولم يبق منها بنهاية القرن التاسع عشر الإفرنجي سوى 8% فقط من جملة مساحتها، لم تطأه أرجل المحتلين وهي نسبة تقلصت فيما بعد وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين عندما استكملت دول أوروبا الاستعمارية احتلال ما تبقى من أراضي القارة.

وعلى الرغم من أن المستعمرين الفرنسيين لم يحددوا بوضوح في بدايات فرض احتلالهم، هدفهم الحقيقي من ذلك الاحتلال والتوسع، إلا أنهم وفي نهاية القرن التاسع عشر وبعد تمكنهم من السيطرة على العديد من المواقع في منطقة غرب إفريقيا، وتمكنهم من السيطرة على أغلب جيوب المقاومة المحلية التي قادها أبناء المنطقة، لم يجد رئيس الحكومة الفرنسية في عام 1895 إفرنجي «جولي فيري» Jules Ferry غضاضة أو حرجا لأن يعلن أمام المجلس النيابي الفرنسي حقيقة المرامي الاستعمارية الفرنسية عندما حدد ثلاثة أهداف رئيسية لذلك التوسع الاستعماري وهي:

1 ـ الحصول على خامات المستعمرات.

2 ـ إيجاد أسواق جديدة لتصريف منتجات أوروبا.

3 ـ فتح الطريق أمام الاستثمارات الأوروبية وشركاتها في تلك المستعمرات.

وهذه الأهداف الثلاثة أوضحها بشكل أكبر الكاتب الفرنسي «دارسي» Darcy في سنة 1904 إفرنجي عندما قال بوضوح: «إن توسع الدول الغربية خارج حدودها أصبح يعتبر شرطاً أساسياً لقيام ودوام هذه الدول، فمن لا يتقدم ويسبق.. يتأخر.. ومن يتأخر لا بد أن يغرقه الطوفان».

ويقول «لورد لوغارد» وهو من كبار عتاة الدعوة لاستعمار إفريقيا، وكانت له إسهامات كبرى في إضافة العديد من المناطق للمستعمرات الإنجليزية في شرق إفريقيا، يقول في سنة 1893 إفرنجي بوضوح «أن الاستعمار الإنجليزي لإفريقيا تدعو إليه مصالح إنجلترا الحيوية الخاصة لمواجهة الزيادة في منتجاتها الصناعية، ففي إفريقيا مجال هائل لتوزيع الفائض من هذه المنتجات وتنمية التجارة الإنجليزية».

وفي وقت لاحق وبعد أن دخلت الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن الماضي على خط التدخل في شؤون القارة ومحاولة الاستحواذ على ثرواتها وخيراتها، عبَّرت صحيفة «كريستيان ساينس مونتير Christian Science Monitor الأمريكية بشكل أكثر صراحة في عددها الصادر بتاريخ 17 ـ 11 ـ 1956 إفرنجي عن التوجه الاستعماري لفرض الاحتلال على القارة الإفريقية بقولها: «إن رأس المال الأمريكي اكتشف في إفريقيا قارة من مائة وخمسين مليون مستهلك ومصادر لا تنضب من المواد الخام».

وبالإضافة إلى هدف تصريف المنتجات في القارة السوداء والاستحواذ على مواردها والمواد الخام فيها، استنبط الأوربيون هدفاً ثانياً من استعمارهم وهو إقامة مستعمرات استيطانية لإسكان الفائض من الأوروبيين فيها، وهو هدف كشف عنه الرئيس الغاني ـ كوامي نكروما ـ عندما قال: إن المستعمرين الأوروبيين عندما احتلوا القارة الإفريقية كوّنوا نوعين من المستعمرات هي:

ـ مستعمرات للاستيطان.

ـ مستعمرات للاستغلال.

ولتحقيق كل هذه الغايات انطلقت الآلة الجهنمية الاستعمارية الأوروبية المسلحة بأحدث أسلحة الفتك والدمار في تلك الفترة لفرض الاحتلال العسكري المباشر على إفريقيا، وخلال فترة زمنية وجيزة، وعلى الرغم من مقاومة أهلها لوقف الزحف الاستعماري المجنون، استطاعت الدول الأوروبية أن تنشىء عشرات المستعمرات وسط القارة وعلى سواحلها بعد أن حسمت أسلحة فتكها المدمرة المعركة لصالح الغزاة.

وبالنسبة للاستعمار الفرنسي الذي زحف على منطقة غرب إفريقيا، فقد أطلق على المناطق التي فرض الاحتلال عليها اسم «إفريقيا الفرنسية» وضمت ـ السنغال ـ موريتانيا ـ غينيا ـ السودان الفرنسي «مالي حالياً» ـ ساحل العاج ـ فولتا العليا ـ «بوركينا فاسو حالياً» ـ داهومي «بنين حالياً» ـ النيجر ـ وهي كلها مناطق فرض المستعمرون الفرنسيون الاحتلال العسكري المباشر عليها على فترات مختلفة، وبلغت المساحة الإجمالية لهذه المستعمرات حوالي مليونين ونصف المليون كيلومتر مربع أي ما يوازي مساحة فرنسا عشر مرات.

كان ذلك الوجه المعلن من عملية الاستعمار الغربي لإفريقيا، أما الوجه الخفي لهذا العمل والذي حرص المستعمرون الفرنسيون على تنفيذه بشكل خاص في منطقة غرب إفريقيا، فهو محاولة الحد من تنامي المد الإسلامي والعربي في هذه المنطقة، وخاصة القادم من دول الشمال الإفريقي وإنهاء التواصل العربي الإسلامي المنطلق من تلك الجهات باتجاه السودان الغربي والأوسط، ومحاربة الثقافة العربية في المنطقة، وبالذات لغة العرب وخطهم اللذين كان أهل المنطقة يتحدثون ويكتبون بهما ثقافتهم وأدبياتهم ومختلف معارفهم.

ومن هنا.. وعندما تمكن الفرنسيون من احتلال المنطقة كان أول أهدافهم هو محاربة اللغة العربية والحد من تنامي الإسلام في المنطقة، وفرض هذا المستعمر بدلاً من ذلك لغته وثقافته وأدبياته على سكان المنطقة.

ولـم يكتف المستعمر الفرنسي بكل ما فعله في المناطق التي فرض عليها احتلاله، فمارس نوعاً آخر من التمييز الخطير على السكان منح فيه الوظائف على الرغم من هشاشتها وعدم أهميتها لأولئك الذين قبلوا بأن «يتفرنسوا» لغة وثقافة وديانة، وهو أمر ما زلنا نراه «للأسف» حتى الآن في بعض دول المنطقة في الاختلاف الواضح بين مستوى حياة من قبل بالتطبع بثقافة المستعمر، وأولئك الذين رفضوها وتمسكوا بثقافتهم السابقة.

ولكن.. وعلى الرغم من كل ما فعله المستعمرون الفرنسيون بشكل خاص والأوروبيون بشكل عام للحد من تنامي الإسلام في إفريقيا ومحاربة هذا الدين، و كل المنتمين إليه بشتى الطرق والوسائل، إلا أن كل هذه المحاولات وكل هذه المساعي فشلت، واستمر الإسلام بفضل جهود ورعاية المؤمنين به والحاملين له بين ثنايا ضلوعهم، في الانتشار والتقدم بشكل مستمر أذهل المستعمرين وأسقط في أيديهم.

14

تمبكتو..
اسمها مركب من كلمتين:
تين.. وبوكتو

لا أحد يستطيع أن يعيِّن تاريخاً محدداً لبدء تكوين مدينة ـ تمبكتو ـ أو «تمبكت» وأكثر الروايات المتداولة عن كيفية إنشائها تقول أن قبائل الطوارق العائدة في أصولها إلى قبيلة ـ صنهاجة ـ العربية الكبرى والمستوطنة على تخوم الصحراء الكبرى من جهة الجنوب، وتحديداً من قبائل ـ لمطة ـ هي أول من أقام في تلك المنطقة وقبل أن يتحول الموقع إلى مدينة، عندما كانت الظروف المناخية في بعض السنوات تضطرهم للتوجه إلى قرب نهر النيجر بحثاً عن مكان مناسب يوفر الكلأ والمرعى لماشيتهم والماء لها ولهم.

وتذكر المصادر التاريخية والشفوية للمنطقة أن تلك القبائل العربية المهاجرة خلف قطعان ماشيتها، والتي كانت تجوب الصحراء الكبرى طولاً وعرضاً على مدى تاريخ وجودها فيها، هي التي قامت بحفر أول بئر لتوفير المياه الصالحة للشرب للمترددين على تلك المنطقة، والذين كانوا يضطرون للبقاء هناك لعدة أشهر متتالية في سنوات الجفاف في مناطق استقرارهم الأصلية، وحتى تتحسن الظروف المناخية في مناطقهم مرة أخرى.

ويقال إن أصل الكلمة التي تعرف بها المدينة الآن ـ تمبكتو ـ تعود إلى سيدة مالية مسنة اشتهرت بالأمانة وكانت تقيم في ذلك الموقع، وكان الطوارق

وأهل المنطقة القادمون من أماكن بعيدة يستأمنونها في تخزين مؤنهم وبعض الأشياء الأخرى التي كانوا في غير حاجة لنقلها معهم إلى مناطق استقرارهم في الشمال، هذه السيدة، كانت تسمى ـ بكتو ـ وكان الطارقي يُسأل عندما يعود إلى موطنه الأصلي أين أمضى فترة الجفاف، ، أو أين لجأ بقطعان ماشيته أثناءها، أو أين خبأ امتعته، يقول «وضعتها عند ـ تين ـ «ومعناها ـ مكان» ـ بكتو ـ وهو اسم هذه السيدة، ومع مرور الزمن اندمجت الكلمتان معاً، فأصبحت ـ تبن بكتو ـ ثم ـ تمبكتو ـ وبذلك سميت المدينة.

وفي تلك الفترة، وقبل أن تنهض المدينة وتخرج للوجود، كانت مدينة «ولاتة» هي المدينة التي يعرفها تجار الشمال الإفريقي، وتجار منطقة السودان الغربي بسوقها الكبير ـ بير ـ حيث يبادلون التجارة فيما بينهم، إضافة إلى عدد من المدن الأخرى بالمنطقة مثل ـ غاو ـ و ـ جنة ـ وكاغو.

وفي القرن الحادي عشر الإفرنجي وبسبب الحروب المحلية ضعفت مدينة ـ ولاتة ـ وسوقها الكبير وبدأت معالم اندثارها تظهر للوجود بعد أن كسدت التجارة فيها، فتحول التجار عنها، وأتيحت الفرصة أمام ظهور ونمو العاصمة التجارية الجديدة التي كتب لها أن تنهض من العدم لتستحوذ على تجارة المنطقة، ولتصبح، إضافة إلى ذلك، منارة علمية ودينية لكامل منطقة السودان الغربي وهي ـ تمبكتو ـ التي سرعان ما تحولت إليها تجارة القوافل، وباتت منذ ذلك القرن ملتقى لتجار المنطقة، وتجار القوافل القادمين من الشمال الإفريقي، وشيئاً فشيئاً. أصبحت هي قبلة التجار، والمقر الأول لتبادل تجارتهم. وكان ذلك في حوالي العام «1100 إفرنجي».

ويقول المؤرخ العربي ـ السعدي ـ عنها أنها كانت «ملتقى الفلك والسيّار، فجعلوها خزانة لمتاعهم وزرعهم إلى أن صارت مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم».

ويضيف «كان التسوق من قبل في بلد ـ بير ـ وإليها يرد الرحالة من الآفاق،

وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة، ومن كل بلاد، من أهل مصر ووجد، وفزان، وغدامس، وتوات، ودرعا، وتفلاتة، وفاس، وسوس، وبيط، إلى غير ذلك، وقد انتقل الجميع إلى ـ تمبكت ـ قليلاً قليلاً. حتى استكنوا فيها وزيادة مع جميع قبائل صنهاجة بأجناسها».

وهكذا. . بدأت ـ تمبكتو ـ تأخذ مكانتها كمدينة تجارية بالدرجة الأولى، قبل أن تصبح في وقت لاحق منارة علمية ودينية، وهي مكانة زاد في تدعيمها علماء قبائل ـ جدالة ـ العربية وعلماء موريتانيا القادمين من ـ ادرار ـ والذين وبعد بدء أفول المدينة السابقة ـ ولاتة ـ هجروها إلى المدينة الجديدة ـ تمبكتو ـ وأقاموا بها، وكان أولئك العلماء أول من مارس التدريس الإسلامي في مدارسها وكتاتيبها القرآنية، إضافة إلى ممارستهم لحرفة التجارة، وهم أول من عمّر مساجدها وأمدوها بالأئمة والوعاظ لتوعية مدارك الناس وتعريفهم بأصول دينهم، كما قاموا بحكم تنقلهم وسط الصحراء المترامية وعلى تخومها بالمساهمة في إشهار المدينة الجديدة التي نهضت على منحنى نهر النيجر.

وتذكر مصادر التاريخ الخاصة بالمنطقة أن تمبكتو، وقبل أن تصبح مدينة متكاملة، كان السكان المحليون القادمون من مختلف مناطق السودان الغربي يتوافدون عليها باستمرار حيث يقيمون مواقع لسكنهم فيها بهدف الاستقرار الدائم، وهو هدف ضاعف من ترسيخه تجار مدينة ـ جنة ـ «أو ـ جني ـ كما أصبحت تعرف الآن» القريبة من تمبكتو والذين كانوا يترددون عليها أثناء تنقلاتهم وسط الصحراء الكبرى بحكم التجارة مع المدن الأخرى في المنطقة، وعندما تدهورت تجارة ـ ولاتة ـ بسبب الغزوات التي كان يقوم بها ملوك امبراطورية مالي، حوّل تجار مدينة «جنة» قوافلهم التجارية نحو ـ تمبكتو ـ المدينة الوليدة، ولم يأت القرن الرابع عشر الإفرنجي، حتى تحولت تجارة المنطقة كلها تقريباً باتجاه المدينة الجديدة ـ تمبكتو ـ.

في هذه الفترة، كانت امبراطورية مالي العظيمة التي أسستها قبائل ـ الماندينغ ـ المالية واستمرت من الفترة «1200 إفرنجي» إلى عام «1469 إفرنجي»

تفرض سلطانها على مساحات واسعة من منطقة غرب إفريقيا، بما في ذلك عدد من المدن التجارية الهامة بالمنطقة، وشاءت إرادة الله الخالق عز وجل، أن تنعم هذه الامبراطورية بحاكم عادل تولى الحكم عام «1307 إفرنجي» هو ـ كنكى موسى ـ الذي أصبح اسمه بعد أن أدى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام «منسى موسى» Mansa Mossa، والذي يقال أنه قرر في العام «1324 إفرنجي» أن يكفر عن ذنب ذكر المؤرخون أنه لم يرتكبه، وبسبب ذلك قرر أن يصوم الدهر كله وأن يحج إلى بيت الله الحرام بالحجاز، انطلاقاً من ـ تمبكتو ـ كبادرة على إشهار المدينة وتكريما لها، وهكذا جمع قافلة مكونة من حوالى عشرة آلاف إنسان ضمت حاشيته وخدمه وحرسه إضافة إلى الفقيه ـ أبو عبد اللّه الكومي الغدامسي ـ «ليبي» وكان أشهر علماء مالي في تلك الفترة، واصطحب معه ما قدّره معاصروه بحوالي 200 طن من الذهب على شكل تبر وسبائك ذهبية صرفها كلها على طول الطريق إلى الحج، وخاصة في مصر، والتي يقال أن الكمية الهائلة التي صرفها ـ منسى موسى ـ من الذهب فيها أدت إلى انخفاض سعره لمدة 12 عاماً متواصلة. . وهي رحلة أدت أيضاً إلى انبهار الشرق بكامله بها على مدى عدة حقب تالية. .

ولدى عودة هذا الملك إلى بلاده من رحلته تلك بعد سنتين اصطحب معه العديد من رجال الثقافة والعلم وآلاف المخطوطات والكتب الإسلامية قدمها كلها هدايا لعلماء تمبكتو ومدينة ـ نياني ـ Niani ـ «باماكو حالياً» والتي تحولت إلى عاصمة لتلك المملكة.

كما اصطحب معه مهندساً وشاعراً من أصل غرناطي يدعى «أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الغرناطي»، ولدى توقف قافلة الملك بتمبكتو، كلف ـ منسى موسى ـ ذلك المهندس الغرناطي ببناء مسجد ضخم بالمدينة يكون ملتقى لعلماء المدينة وأئمتها، ولباقي علماء المنطقة، أطلق عليه اسم ـ مسجد جنغري بير ـ ومعناها «الجامع الكبير» كما كلف هذا المهندس ببناء قصر ضخم بالمدينة أطلق عليه اسم «المادوغو» ومعناها «القصر الكبير». كما أمر الملك ـ منسى موسى ـ بتنصيب «محمد النهدي الصنهاجي» عاملاً على المدينة قبل أن يعود إلى عاصمة

ملكه في ـ ولاتة ـ ومنذ تلك الفترة أصبحت المدينة تحت السلطة المباشرة لمملكة مالي الإسلامية.

وحدث أن هذا الملك الصالح انتقل إلى جوار ربه في العام «1332 إفرنجي» وتخلى خلفاؤه الذين توارثوا حكم الامبراطورية بعده عن الاهتمام بأمور دولتهم، وهو أمر شمل أيضاً مدينة تمبكتو. التي كانت قد شهدت في عهده عصراً ذهبياً ضاعف من عدد العلماء فيها، وهم الذين حظوا من ذلك الملك الصالح بمختلف صنوف العون والدعم، وكان يشجعهم على مواصلة عملهم في نشر رسالة الإسلام وتوعية الناس بأمور دينهم.

وكان لا بد لدولة تضعضعت أمورها وسادها خلاف السلاطين والملوك. وتطاحنهم على الكراسي فيها، أن يعتريها الوهن وتضعف سيطرتها حتى على مدنها، وفتح الطريق واسعاً أمام من يريد الاحتلال والتوسع، وهكذا.. ونتيجة لهذا الضعف والوهن الذي ضرب امبراطورية مالي، قامت قبائل الطوارق بالهجوم على تمبكتو وافتكاكها من سيطرة دولة مالي بحجة أنهم أول من أسسها، وبعد هجمات عديدة على حصونها وقلاعها سيطر الطوارق على المدينة بقيادة أحد قادتهم وهو «عقيل أغ ملوك».

وأثناء تولي قبائل الطوارق لإدارة شؤون هذه المدينة، ساد العدل والأمان مرة أخرى ليس في المدينة وحدها، بل وحتى في المناطق المجاورة لها، كما استتب الأمن على طرق قوافل التجارة القادمة منها والمتوجهة إليها من شمال إفريقيا، بحكم سيطرة تلك القبائل على منافذ تلك الطرق، وهو أمر انعكس على تمبكتو نفسها بمزيد من الرخاء والرفاهية والتطور، وقد اشتهر حاكمها في تلك الفترة «عقيل أغ ملوك» باحترام سكانها وتقريبه لعلمائها ووعاظها، الأمر الذي وفر لأولئك العلماء والوعاظ فرص مواصلة القيام بواجباتهم على أحسن وجه، وأدى بهم في المقابل إلى احترامهم وتبجيلهم له في كتاباتهم.

وفي نهاية حكم الطوارق للمدينة والذي دام 35 عاماً، سادت الفوضى مرة أخرى ربوع تلك المناطق، وهي فوضى انعكست بالتالي على تمبكتو نفسها،

حيث بدأ حكامها من أسرة ـ اغ ملوك ـ في آخر عهدهم يتطاحنون على السلطة فيما بينهم، وهو أمر أدى إلى تدهور تجارة المدينة وكساد أحوالها، ووصل الأمر بأحد سلاطين نهاية تلك الفترة من الطوارق أن بدأ في مضايقة علمائها ووعاظها، بل إنه مارس ضدهم سياسة التعذيب والاعتقال، وقام بنفي البعض منهم إلى مناطق بعيدة عن المدينة.

وهنا.. قرر علماء مالي الاستنجاد بسلطان مقاطعة مالية كانت يومها تنهض ببطء لتأخذ مكانة امبراطورية مالي الآفلة، وهي مقاطعة ـ سنغاي ـ التي كانت تتخذ من مدينة ـ غاو ـ عاصمة لحكمها الناهض.

ولأن الفرصة لا تتكرر مرتين، فقد استجاب سلطان السنغاي يومها وهو «سوني علي بير» والذي يعني اسمه «المنقذ الكبير علي» استجاب لدعوة هؤلاء العلماء وقام بالهجوم على الطوارق في تمبكتو، فتغلب عليهم وأخضع المدينة لنفوذ دولته الوليدة.

وما حدث هنا بالنسبة لسكان تمبكتو وعلمائها، كان أشبه «بالمستجير من الرمضاء بالنار» فقد اتضح أنهم استنجدوا بطاغية دموي، مارس على المدينة وأهلها حكماً إرهابياً ودموياً بكل معنى الكلمة بدعوى أنهم أيدوا الطوارق في احتلالهم لتمبكتو، حيث بدأ عهده بمطاردة علماء المدينة ووعاظها وشيوخها، ومارس ضدهم كل صنوف التعذيب والإرهاب لدرجة آثر معها من كتبت له النجاة من بطشه، الفرار بجلده هرباً بحياته، والتجأوا إلى مدينة ـ ولاتة ـ عاصمة امبراطورية مالي السابقة.. ثم ثنّى هذا الطاغية بأهل المدينة فكان يمارس ضدهم مختلف صنوف التعذيب والتنكيل، لدرجة أن مؤرخي المنطقة ممن عاصروا فترة حكمه تقشعر أبدانهم لدى تسجيلهم لأحداث تلك الفترة الحالكة السواد من تاريخ المدينة، حيث كان هذا الطاغية مثلاً يجبر المرأة على «تهريس ابنها في المهراس» وكان يقتل دون رحمة أو شفقة كل من يشم عليه رائحة المعارضة أو حتى التفكير فيها.

وهذا الطاغية ادّعى الإسلام، وقال المؤرخ ـ المغيلي ـ عنه «إلا أنه رغم

نطقه بالشهادتين ونحوهما، لم يكن يعرف لذلك حقيقة، وكثيراً ما كان يصوم ويتصدق بالذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها، ولكن مع ذلك كان يعبد الأصنام، ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة في أقل الأمور وأجلها». وقد استمر حكمه لأكثر من ثلاثين عاماً قتل فيها من البشر ما لا يعرف عدده تحديداً، وتمكن خلالها هذا الطاغية بدهائه وبطشه الذي لا يرحم من إقامة دولة واسعة الأرجاء، أوجدت أساساً متيناً لقيام امبراطورية السنغاي الإسلامية التي غطت شهرتها الآفاق «في عهد سلاطينها اللاحقين»، حيث تمكن من مد نفوذها وسلطانها إلى العديد من المناطق، حتى أصبحت تشمل أغلب الممالك والسلطنات المجاورة في المنطقة ووصلت حدودها من المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود النيجر حالياً شرقاً.

وفي عام «1492 إفرنجي» توفي هذا الطاغية عقب عودته من إحدى غزواته بعد أن جرفته مع جيشه سيول الأمطار في أحد وديان المنطقة، فأهلكته مع العديد من اتباعه، وتولى ابنه «ني داعو» شؤون الحكم من بعده، غير أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما اندلعت ثورة إسلامية حقيقية عارمة ضده في عاصمة ملكه «غاو» قادها أحد ضباط الجيش البارزين، وهو ـ محمد بن أبي بكر توري ـ الذي طارد بقايا أسرة الطاغية وأعوانه حتى قضى عليهم جميعاً.

وبتأييد من بقية سلاطين المنطقة الذين كان قد أطاح بهم «سوني علي بير» وتأييد علماء المنطقة ووعاظها، وعلى رأسهم علماء تمبكتو، أصبح محمد توري ملكاً على دولة السنغاي عام «1493 إفرنجي». وأصبح أول من كوّن أسرة «الاسكيين» الذين استمر حكمهم طوال قرن كامل، اشتهرت خلاله هذه الأسرة بإعادة العدل والأمان والسلام لكامل المنطقة، كما اشتهر أغلب ملوك هذه الأسرة المسلمة بحب العلم والعلماء، كما قاموا بنشر الإسلام وتوسعوا في ذلك بشكل لم يسبق له مثيل في كامل منطقة السودان الغربي، وكان لا بد أن يطال هذا الرخاء والأمن والعدل مدينة تمبكتو التي ازدهرت مرة ثانية في عهد حكم هذه الأسرة كما لم تزدهر من قبل.

وتختلف المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في أصول هذا الملك الجديد ـ محمد توري ـ فبعضها ينسبه إلى قبائل «السوننكي» أحد فروع قبائل «الماندينغ» التي أسست امبراطورية مالي القديمة وأنه من ـ كاي ـ غرب مالي حالياً، وبعضهم ينسبه إلى قبائل ـ صنهاجة ـ القادمة من الصحراء الكبرى، ويقال إنه ينتمي إلى أسرة «ضياء» التي قدمت من ليبيا، أو اليمن وهي أسرة يقال أنها استقرت وأقامت دولة لها حول مدينة ـ كوكيا ـ في فترة ما بين القرنين الخامس والسادس الإفرنجي، ومنهم من يقول إنه يعود في أصوله إلى قبائل ـ التكرور ـ الشهيرة في منطقة غرب إفريقيا.

وتذكر المصادر التاريخية التي سجلت بداية ظهور هذا الملك الجديد، المؤرخ ـ عبد الرحمن السعدي ـ أنه كان «كالنور الساطع الذي أنار الكون بعد ظلام دامس» حيث كان «رقيق القلب، خافض الجناح، شديد التعظيم لأئمة الدين، محباً للعلم والعلماء، مكرماً لهم» كما أنه «لم يكن في أيامه كلها بؤس ولا بأس، بل كانت رعيته في أهنأ العيش والأمن» كما أنه «حمى البلاد من الخراب والفوضى، وهو خير من لقب في بلاده ـ بأمير المؤمنين».

ويقول عنه المؤرخ «محمود كعت» من سكان تمبكتو نفسها «إنه كان محباً للعلم والعلماء والصالحين من عباد الله، وطلاب العلم، كما كان كثير الصدقة على المحتاجين إليها، مواظباً على أداء الفرائض معيناً للمسلمين على طاعة الله وعبادته، أبطل جميع البدع والمنكرات التي كان عليها حكم ـ سوني علي بير ـ كفل حريات الناس وحررهم من الرق، ورد الأموال التي نهبها الطاغية السابق، ففرّج به الله كرب المسلمين وأزال به عنهم البلاء والخطوب».

ويقول باحثو تاريخ المنطقة أن علماء الإسلام في غرب السودان، وفي مدينة تمبكتو بشكل خاص ووعاظها وشيوخها، وبسبب ما لحق بهم من إهانات وعذاب في عهد الطاغية ـ سوني علي بير ـ هم الذين حسموا في نهاية الأمر، أمر القضاء على ما تبقى من أسرة ذلك الطاغية، عندما تمكنوا من الإطاحة بابنه «الغر الضعيف» في ثورة شعبية عارمة قادها «محمد توري» بنفسه على رأس

جيش من اتباعه في موقعة ـ انغاو ـ في الرابع من شهر الطير «أبريل» «1493 إفرنجي» وبذلك قضوا على أي أمل لهم في استمرار حكم أسرتهم الدموي، وطلب أولئك العلماء من محمد توري تولي أمر الدولة الجديدة بعد أن رأوا فيه القدرة على ذلك، ليبدأ به عهد جديد أصبح يعرف منذ ذلك الوقت بعهد «الاسكيين» ولتبدأ بعهده العصور الزاهية لامبراطورية سنغاي الإسلامية التي سادت في المنطقة على مدى مائة عام، وأصبح اسم الحاكم الجديد «أسكيا محمد» و«أسكيا» تعني بلغة أهل البلاد ـ القاهر ـ.

وبعد أن استقرت الأوضاع لهذا المصلح الكبير، بدأ علماء تمبكتو الذين كانوا قد هجروها أيام الطاغية «سوني علي بير» في العودة إليها من ـ ولاتة ـ وبقية المناطق الأخرى، وبعودتهم ازدهرت الحركة الثقافية الإسلامية بالمدينة، وشهدت تمبكتو مرة أخرى عصور الازدهار والتألق الذي امتد ليعم كامل منطقة السودان الغربي، وحتى أبعد من ذلك، وهو ازدهار، أوصل ما تقطع من تاريخ المدينة الإسلامية بماضيها الذي احتضنته أجيال سابقة منذ وصول الإسلام إلى تلك المناطق، وتولى حكام امبراطورية السنغاي وعلى رأسهم الحاج أسكيا محمد، فتح مواقع ومعاقل الوثنيين أمام زحف الإسلام، فأوصلوا نوره إلى ـ بلاد الموسى ـ «بوركينا فاسو حالياً».

وانطلق علماء تمبكتو في جهادهم عبر كافة الجهات، كما توسعوا داخل مدينتهم في إقامة ندوات الوعظ والإرشاد لتوعية الناس بأصول دينهم، وتثقيفهم بمختلف العلوم الإسلامية وشتى المعارف الأخرى، كما توسعوا في بناء المساجد والمدارس التعليمية في كل مكان لتمكين طالبي حفظ القرآن الكريم وأصول الدين والشريعة الإسلامية وتعلم اللغة العربية من غايتهم.

وشهدت تلك الفترة تنامي وغزارة علوم ومعارف علماء تمبكتو الذين نشطوا في تدوين المخطوطات المتضمنة شتى العلوم الإسلامية من تأليفهم وإبداعهم، إضافة إلى المخطوطات التاريخية التي تسجل تاريخ المنطقة ومن فيها، وما مرّ عليها من حقب وسلطنات وممالك «وهي مخطوطات لا زال أغلبها

للأسف حبيساً في المتاحف والمكتبات الخاصة لأهل المنطقة ولم تطبع حتى الآن».

ولم يكتف علماء تمبكتو بكل ذلك، بل أنهم اتصلوا بغيرهم من العلماء المسلمين في مسجد الزيتونة بتونس، ومساجد زليطن بليبيا، والأزهر بمصر وتلمسان بالجزائر ومراكش بالمغرب، لتبادل المعارف والمعلومات معهم، حول آخر مستجدات العالم الإسلامي وللاستفادة من العلوم الإسلامية في كافة مجالاتها.

وفي هذه الفترة المزدهرة من الحياة الثقافية والعلمية للمدينة، تذكر المصادر التاريخية «إن تمبكتو اشتهرت عالمياً ببيع المخطوطات العربية التي أصبح التجار عن طريقها يحصلون على أرباح هائلة فاقت كثيراً ما يتحصلون عليه من السلع الأخرى».

ووصف المؤرخ العربي الإفريقي حسن الوزان، المعروف عالمياً باسم ـ ليو الإفريقي ـ تمبكتو في تلك الفترة بأنها «أصبحت تعج بالكثير من الفقهاء والقضاة، والدعاة» وكان رواج الكتب في تمبكتو نتيجة ازدهار العلوم التي كانت تدرس في جامعاتها ومدارسها «سبباً في أن تجارة الكتب فيها أكثر جلباً للربح من أية سلعة أخرى» و«كانت المكتبات العامة التي يمتلكها العلماء مفتوحة لجميع الراغبين في الاستعارة أو الاطلاع».

ونشطت في المدينة وبدعم وتشجيع من علمائها حركة نسخ الكتب بشكل واسع «بهدف تمكين الراغبين في العلم من الحصول على حاجتهم من الكتب» حيث يقوم متطوعون خاصون ممن يرغبون في مزاولة هذا العمل، وهم عادة من طلبة جامعة ـ سنكري ـ بالمدينة بإعادة نسخ ما يحصلون عليه من الكتب بالخط والحرف العربي، ثم يبيعون تلك النسخ لمن يريد وتبقى النسخة الأصلية مع أولئك الناسخين.

وبعد نحو ثلاث سنوات من سيطرته على الدولة الجديدة ووضع أسسها

والقضاء على بقايا الوثنيين، وتوسيع رقعتها، وتعيين الولاة على مختلف أجزائها بعد استتباب الأمن والاستقرار فيها، وإعادة تنظيم دولته على أحدث الطرق المعروفة في ذلك الوقت، قرر ـ أسكيا محمد ـ أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، في رحلة أطارت بألباب الشرق كله، بسبب تلك الكميات الهائلة من الذهب التي حملها معه والتي قدرت بحوالى «300 ألف مثقال من الذهب الخالص» وهي رحلة، اصطحب فيها أكثر من 1500 عالم وواعظ ومقرىء للقرآن الكريم، إضافة إلى 500 فارس لحماية القافلة.

وقد أعادت الأبهة والعظمة التي ظهرت بها تلك القافلة القادمة من غرب السودان، وفي كل مكان حلت به على امتداد الطريق إلى مكة، أعادت في أذهان الناس ذكريات الرحلة المشابهة التي قام بها السلطان «منسى موسى» أحد سلاطين مملكة مالي «الذي تحدثنا عنه من قبل».

الغريب أن هذا الحاكم الصالح وبعد عودته من رحلة الحج بعدة سنوات اضطر للتنازل عن عرش دولته لابنه «أسكيا موسى» عام «1528 إفرنجي» والذي عرف بعهده الدموي بعد أن أجبر والده للتنازل له عن العرش، فعاش الأب حزيناً مهموماً بضعة أشهر وتوفي ـ رحمه الله ـ في نفس العام حسرة وكمداً.

ثم توالت أسرة «الاسكيين» على الحكم في امبراطورية السنغاي الإسلامية وامتد نفوذ دولتهم من مناطق التكرور على المحيط الأطلسي غرباً إلى أغاديس ـ شمال النيجر حالياً ـ شرقاً بامتداد حوالي ألفي كيلو متر، ومن ـ تغازا ـ شمالاً إلى بلاد الموسى «بوركينا فاسو حالياً»، وطوال هذه الفترة شهدت المنطقة ومدينة تمبكتو فترات ازدهار تارة واندحار تارة أخرى، حسب مدى قوة ونفوذ الحكام أو ضعفهم، ممن تعاقبوا على حكم الدولة.

وكان لا بد أن يحيق بهذه الامبراطورية ما حاق بغيرها في الأزمان السابقة، من تفسخ وتفكك عندما تولى ملوك ضعفاء أمور الحكم فيها في الفترة من عام «1581 إفرنجي» إلى العام «1591 إفرنجي» بعد أن تفشى بينهم الضعف وحب الشهوات والملذات، وتفسخت أخلاق الناس وحادوا عن دينهم،

وسيطرت عليهم نوازع الجهل، وتمكنت منهم عادات الوثنيين فأثرت على سلوكهم بشكل واضح، وهو أمر أوضحه المؤرخ «عبد الرحمن السعدي» بقوله «ثم بدلوا نعمة الله كفراً وما تركوا شيئاً من معاصي الله تعالى إلا وارتكبوها جهراً».

وهكذا. . . وبدءاً من العام 1591 إفرنجي استولى المغاربة على كامل المنطقة، التي كانت تحكمها امبراطورية السنغاي، في عهد سلطان المغرب «أحمد المنصور السعدي» وشمل حكم المغاربة تمبكتو أيضاً وهو حكم ترك أثره على المنطقة خاصة من حيث طراز العمارة بالذات، غير أنه لم يعمر طويلاً، فتفتتت المنطقة بكاملها إلى ممالك وسلطنات إسلامية جديدة قامت على انقاض امبراطورية السنغاي المنحلة، فقامت مملكة الفولانيين في ـ ماسينا ـ ومملكة «سيغو» وسط مالي التي أقامتها قبائل ـ البمبارا ـ بعد أن دخلت في الإسلام.

واستمرت حالة المنطقة في التذبذب عدة حقب من الزمن، إلى أن جاء دور الحركات الصوفية التي نهضت بالمنطقة من جديد على أيدي مجاهدين أبطال من أبناء السودان الغربي والأوسط، وهي حركات صوفية أخذت على عاتقها تولي زمام المبادرة، وتصدّرت الساعين للقيام بمهمة إعادة إحياء المنطقة، وإعادة نشر دين الله بين أبنائها، وكان على رأس تلك الحركات الصوفية الشيخ ـ أحمد التكروري ـ، الذي فرض نفوذه على ـ تمبكتو ـ و ـ ماسينا ـ ثم الحاج ـ عمر الفوتي ـ الذي فرض بدوره نفوذه على مناطق عديدة من السودان الغربي وأقام مملكة في ـ سيغو ـ وسط مالي حاليا عام «1861 إفرنجي» واستمر حال المنطقة بين صعود ونزول، إلى أن نكبت في نهاية المطاف بدخول الغزاة الفرنسيين واستيلائهم على مدن وقرى السودان الغربي والأوسط تباعاً، على الرغم من مقاومة أهلها وصمودهم في وجه المحتلين، ووصل أولئك الغزاة إلى تمبكتو في عام «1894 إفرنجي» واستقروا بها إلى أن نالت مالي استقلالها عام 1960 إفرنجي.

15

مأوى العلماء العابدين
ومألف الأولياء الصالحين

يؤكد المؤرخون والكتاب الذين دونّوا تاريخ منطقة غرب إفريقيا، واهتموا بصفة خاصة بالتأثيرات الخارجية الوافدة التي ساهمت في تشكيل وطبع السمات التي تميزت بها مدينة ـ تمبكتو ـ بالذات، بعد استقرار الأوضاع فيها، وتحولها إلى مدينة متكاملة وخاصة في عهد ـ الأسكيين ـ يؤكدون «أن الفكر الإسلامي كان هو العنصر الأول الذي ساهم في إقامة امبراطوريات وممالك منطقة السودان الغربي».

فقد كان من المعروف مثلاً، وبعد إماطة اللثام عن الكثير من الحقائق التي حاول المستعمرون الفرنسيون طمسها عمداً أثناء فترة احتلالهم الطويلة للمنطقة، إن امبراطوريات وممالك عديدة أقيمت في المنطقة قبل ظهور الإسلام فيها، مثل امبراطورية غانا في بدايات تكوينها، وامبراطورية مالي قبل أن يهتدي أحد ملوكها الأوائل المعروف باسم «سندياتا» والذي أعلن إسلامه قبل وفاته عام 1255 إفرنجي وأصبح اسمه «المسلماني»، وكان معروفاً أن كلا الامبراطوريتين لم تصبحا كيانين يحملان صفة «الامبراطورية» الكاملة إلا بعد أن جاء الإسلام ودعمَّ بمبادئه أركانهما.

ويقول «رولاند. أوليفر» و«جون فيغ» في كتابهما «موجز تاريخ إفريقيا»

«لقد كانت الممالك السودانية العظيمة ومدنها قد أصبحت جزءاً من العالم الإسلامي بدون أن تفقد شخصيتها السودانية المميزة، واستطاعت مدارسها ومساجدها أن تجتذب طلاب العلم والدين من أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، فكانت جامعة تمبكتو التي ذاعت شهرتها تقوم بنفس دور معاهد القاهرة الدينية».

وكان التجار العرب القادمون من الشمال الإفريقي إلى تلك المناطق سواء اتخذوا طرق القوافل المحاذية لساحل المحيط الأطلسي أو عبر طرق الصحراء الكبرى، يعرفون تماماً عشرات المدن التي قامت ونهضت في تلك المناطق واشتهرت بالتجارة، حتى وصل الإسلام إلى المنطقة، وكان أولئك التجار والذين كانوا هم أول من أدخل الإسلام إلى منطقة غرب إفريقيا، يتبادلون مع سكان تلك المناطق مختلف صنوف التجارة بدءاً من الذهب، وانتهاء بالأحجار الكريمة مروراً بالملح وريش النعام وسن الفيل والأقمشة. . . الخ.

وتدعم حقيقة أن الإسلام كان هو الأساس في إقامة وشهرة امبراطوريات منطقة غرب إفريقيا، ما أصبحت عليه هذه المنطقة ومدنها من شهرة وازدهار بعد وصوله وفرض وجوده، وهي شهرة لم تقتصر على تلك المنطقة فقط، وإنما تعدتها إلى كامل الشمال الإفريقي، والشرق العربي، بل أنها وصلت إلى أبعد من ذلك، إلى الباكستان والهند، وهو ازدهار ضاعف في تأكيده ودعمه لقاء علماء الإسلام القادمين من تلك المجاهل البعيدة، من شمال إفريقيا وبلاد الحجاز، حيث توطدت العلاقات الثقافية بين الطرفين بشكل أكبر، فازدهرت المدن والقرى السودانية بهذا التواصل الحضاري، وأصبحت شهرة بعضها وعلى رأسها «تمبكتو» و«جنة» و«غاو» وفي زمن قياسي تضاهي شهرة القيروان وفاس وغدامس، وجامع الزيتونة، والأزهر، وتلمسان، خاصة بالنسبة لمساجدها وجامعاتها الدينية والعلمية.

وقد ضاعف من دعم هذه العلاقة التي توطدت بين علماء المسلمين

العرب وأشقائهم من العلماء المسلمين في منطقة غرب إفريقيا، لجوء عدد كبير من العلماء المسلمين العرب القادمين من الأندلس بعد إخراجهم من هناك على أيدي الصليبيين وملاحقتهم لهم في بعض أجزاء الشمال الإفريقي، فهاجر بعضهم جنوباً باتجاه ـ تمبكتو ـ لمواصلة رسالتهم في نشر دين الله بين خلقه، مثلما كانوا يفعلون في الأندلس، وهي الهجرة التي ضاعفت من دعمها ووطدت أركانها حركة ـ المرابطين ـ في القرن الحادي عشر الإفرنجي، والتي كان لرجالها مع أشقائهم من مسلمي السودان الغربي ـ جزاهم الله جميعاً كل خير ـ أعظم الأثر في نشر رسالة الإسلام في تلك المجاهل.

ولم تمض سوى حقب قليلة على تدفق هذا التواصل الديني والثقافي بين الطرفين حتى أصبحت ـ تمبكتو ـ تحظى بشهرة واسعة النطاق وأصبحت تحتل في أذهان الناس جملة من الأسماء من بينها ـ مكة السودان ـ و ـ مدينة العلماء ـ إضافة إلى الأسماء التي ألحقت بها أيام بدء الاستكشاف الجغرافي الغربي لها في القرن التاسع عشر الإفرنجي، والتي كان أغلبها يصف غموضها وثراءها «كما رأينا من قبل»، ولا غرابة في إطلاق كل هذه الأسماء على ـ تمبكتو ـ فقد كانت بحق عاصمة للدين الإسلامي والثقافة الإسلامية وعاصمة للتجارة، تجمّع حولها وفيها أبناء السودان الغربي على مدى ثلاثة قرون متتالية.

وكانت لهذه العاصمة القابعة على أطراف الصحراء الكبرى الجنوبية علاقات ثقافية واسعة النطاق مع مدن الشمال الإفريقي بصفة خاصة، بدءاً بالأزهر في القاهرة، وحتى جامعات فاس ومراكش بالمغرب، وهي علاقات كان أول من وضع أركانها ودعمها بشكل مطلق ودون تحفظ الملك ـ منسى موسى ـ أحد أشهر ملوك امبراطورية مالي العظيمة والذي اشتهر عهده بحب العلم والعلماء، كما أوضحنا ذلك من قبل، فتدفق على المدينة الوليدة ومنذ بداياتها الأولى رجال العلم والثقافة من كل مكان، خاصة بعد رحلته الشهيرة إلى الحج والتي دعا فيها علماء المدن التي زارها والتقاهم فيها للقدوم إلى تمبكتو للقيام بواجبهم في توعية خلق الله بأصول الدين الإسلامي، وأصبحت تمبكتو في

عهده وعهد بقية سلاطين أسرة الأسكيين الذين أقاموا امبراطورية السنغاي فيما بعد، قبلة للوعاظ والعلماء والدعاة الذين وجدوا في رحاب مساجدها ومدارسها القرآنية غايتهم ومبتغاهم في نشر دين الخالق العظيم بين خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة، ونشر لغة القرآن الكريم بين قبائل أفريقية عديدة كانت تضطرها ظروف التجارة والسعي وراء الكلأ والمرعى لإبلها ومواشيها قرب الأنهار، بالتردد على ـ تمبكتو ـ فاعتنق أفرادها الدين الجديد وحملوه إلى قراهم ونجوعهم، حتى عم الإسلام ولغة القرآن كامل منطقة غرب إفريقيا.

ووصف المؤرخ العربي الشهير ـ ابن بطوطة ـ الذي زار المنطقة في القرن الثالث عشر الإفرنجي في كتابه «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ما حظيت به الثقافة العربية والإسلام في عهد امبراطورية السنغاي الإسلامية بقوله «وخطت الثقافة العربية الإسلامية خطوات واسعة في مملكة السنغاي، فقضت على معظم العادات الاجتماعية الوثنية من سحر وشعوذة وعبادة الأسلاف، والانتساب إلى الأمهات دون الآباء، كما غرست فيهم الأمانة والمواظبة على الصلوات الخمس والالتزام بها، والاهتمام بتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم».

وأكد ابن بطوطة أن من شدة تمسك أهل المدينة بالإسلام وحرصهم على تعليم أبنائهم أصول دينهم، «كانوا يؤدون الصلاة في جماعات، وكانوا يضربون أولادهم إذا قصَّروا فيها».

وقد أقيمت بالمدينة منذ البدايات الأولى لإنشائها العديد من المساجد ومدارس تعليم القرآن الكريم، ومختلف العلوم الإسلامية الأخرى، فبالإضافة إلى المسجد الأول الضخم الذي أقامه الحاج «منسى موسى» في تمبكتو بعد عودته من رحلة الحج، هناك أيضاً مسجد ـ سنكري ـ الشهير والذي تبرعت ببنائه سيدة ثرية من مدينة ـ سوكو ـ عام 1450 إفرنجي، وهو المسجد الذي سرعان ما تحول إلى منارة علمية في المنطقة كلها، لدرجة أنه أصبح بفضل علمائه يضاهي في شهرته بالنسبة لمنطقة غرب إفريقيا، الجامع الأزهر بمصر.

ويقول «عبد الرحمٰن السعدي» عن المسجد «أما مسجد سنكري فقد بنته إمرأة واحدة إغلالية ذات مال، كثيرة في أفعال البر» وقد تعاقب على الإمامة والتعليم فيه علماء من أسرة «آل أقّيت» العربية من ـ صنهاجة ـ والتي قدمت إلى تمبكتو ـ واستوطنت فيها بعد أفول نجم مدينة ـ ولاتة ـ وقد احتكرت وتوارثت هذه الأسرة منصب القضاء في تمبكتو طيلة عهد ـ الاسكيين ـ على مدى حوالى مائة عام، كما كان من بين أفراد هذه الأسرة علماء ألَّفوا عشرات المخطوطات في مختلف العلوم الدينية وغيرها.

أما ثالث مساجد المدينة الكبرى فهو ذلك الذي بناه الشيخ ـ محمد النهدي ـ تكريماً لأحد علماء المنطقة وواحد من أبرز علمائها ووعاظها في مجال الدعوة والإرشاد، وهو الشيخ ـ سيدي يحيى ـ والذي شُيِّد في القرن الخامس عشر الإفرنجي، والذي استمر كإمام وواعظ ومدرس لعلوم القرآن والحديث فيه إلى أن وافته المنية عليه رحمه الله.

وبالإضافة إلى هذه المساجد الثلاثة الشهيرة التي أقيمت وأصبحت منارات علمية وثقافية ودينية كبرى في المدينة، هناك عشرات المساجد الأخرى الصغيرة، أقامها السكان والتجار الذين كانت أعدادهم تتزايد داخل المدينة باستمرار، كما أقام أولئك السكان أيضاً أكثر ممن 180 مدرسة لحفظ القرآن الكريم وتفسير معانيه وتعلم اللغة العربية، كان يدرس ويتلقى العلم فيها أكثر من 30 ألف طالب كانوا يتوافدون على المدينة من مختلف مناطق السودان الغربي، يوم كان عدد سكان المدينة في أوج ازدهارها يتراوح بين 120 إلى 160 ألف مواطن أثناء مواسم وصول القوافل التجارية من الشمال الإفريقي.

وتذكر مصادر تاريخ المنطقة أنه كان بمدينة تمبكتو في القرن الثاني عشر الإفرنجي أكثر من 300 مركز من مراكز نشر الإسلام، كان طلبة المنطقة يتلقون فيها علوماً ومعارف تضاهي تلك التي يتلقاها نظراؤهم في جامع الأزهر، وجامع الزيتونة وجامعات مراكش.

وكانت بالمدينة مكتبة ضخمة يلتقي فيها العلماء أثناء إقامتهم أو عبورهم من مختلف مناطق السودان الغربي باتجاه الحج لبيت الله الحرام، حيث كانت قوافل الحجيج تتجمع في المدينة قبل أن تأخذ طريقها عبر الصحراء الكبرى إما باتجاه غدامس وطرابلس، لتنضم للقوافل الأخرى القادمة من الشمال الإفريقي ليتخذ الجميع طريقهم بمحاذاة الساحل إلى مصر ومنها إلى بلاد الحجاز، أو باتخاذ الطريق البري عبر «النيجر وتشاد حالياً» أو السودان الأوسط كما كانت تعرف المنطقة من قبل، ومنها إلى جنوب مصر فالبحر الأحمر فبلاد الحجاز.

وكان مألوفاً في ميناء طرابلس رؤية تجمعات الحجاج القادمين من بلاد السودان الأوسط والغربي أثناء مواسم انتظار السفن الناقلة إلى بر الحجاز ممن يفضلون ركوب البحر.

وأنتج علماء تمبكتو على مدى القرون الثلاثة التي ازدهرت فيها المدينة آلاف المخطوطات المكتوبة بالخط العربي في مختلف مناحي العلوم الإسلامية، إضافة إلى بقية فروع المعارف الأخرى في الأدب والثقافة، وهي مخطوطات ما زال أغلبها حتى الآن حبيساً في المكتبات والمتاحف في انتظار من ينفض الغبار عنها.

ولم يكن غريباً أن يعترف الفرنسيون الذين احتلوا المنطقة في نهاية القرن الماضي، أن المستكشفين الأوروبيين الأوائل والذين كانوا طليعة الاستكشاف لاستعمار المنطقة، ذهلوا عندما قابلوا أفارقة وعرباً من سكان تمبكتو بالذات كانت لهم اهتمامات بالدراسات العقلية والفلسفية، حتى أن الرحالة الألماني ـ بارث ـ الذي زار تمبكتو انطلاقاً من طرابلس الغرب في منتصف القرن التاسع عشر الإفرنجي، ذكر أنه التقى بعالم من أبناء المنطقة كان عاكفاً على إجراء تراجم لكتب أفلاطون وأرسطو.

وقد ألف أحد علماء تمبكتو والذي طبقت شهرته الآفاق، وهو العالم ـ أحمد بابا التمبكتي ـ والمتخرج من أحد مراكزها العلمية، أكثر من خمسين كتاباً

في مختلف العلوم والمعارف الإسلامية، وبسبب شهرته وسعة مداركه وعلمه، أطلقت منظمة التربية والثقافة والعوم ـ اليونيسكو ـ اسمه على أشهر مركز للتوثيق والبحوث التاريخية بالمدينة، وهو ـ مركز أحمد بابا التمبكتي ـ.

كما اشتهر من علماء المدينة أيضاً العشرات من أبنائها أمثال:

- محمد بن محمود بن أبي بكر.
- القاضي أحمد بن محمد بن إقِّيت، المعروف باسم «الحاج أحمد» وهو جد العلامة أحمد بابا التمبكتي.
- القاضي عبد العزيز التكروري.
- القاضي الحاج التمبكتي، وقد شغل منصب القضاء بالمدينة في أوائل القرن الخامس عشر الإفرنجي.
- القاضي الفقيه ـ محمد الكابري.
- القاضي عمر بن محمد إقِّيت.
- القاضي سيدي يحيى التادلسي.
- القاضي عمر بن محمود بن عمر ـ أحد قضاة تمبكتو، وعاصر دخول المغاربة للمدينة عام 1591 إفرنجي.
- القاضي محمود رامي، وقد التقى المغاربة لدى وصولهم إلى تمبكتو وكان معروفاً بكرمه وحسن ضيافته.
- القاضي ـ أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد إقِّيت والذي ذاع صيته في مختلف أرجاء العالم الإسلامي في مجال الفتوى.
- القاضي العلامة الشيخ شمس الدين محمد اللمتوني.
- الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد إقِّيت، وقد اشتهر في علوم الأدب والفقه وتفسير الحديث.
- القاضي العاقب بن محمد بن عمر بن محمد إقِّيت.

وهناك عشرات آخرون من العلماء والفقهاء والكتاب والآخرين ممن لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً هنا.

ومدينة هذا حالها في إنجاب العلماء والاهتمام بالعلم، إضافة إلى دورها في نشر الإسلام، لا غرابة لأن يصفها عبد الرحمن السعدي المؤرخ العربي الشهير بقوله «ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء العابدين، ومألف الأولياء الصالحين».

وقال عنها المؤرخ ـ محمد كعت ـ أحد أبنائها: «لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب، من بلاد كلها مروءة، وحرية وتعفف، وحفظ العرض، ورأفة بالمساكين والغرباء، وتلطف بطلبة العلم وإعاشتهم».

ووصفها حسن الوزان «ليون الإفريقي» والذي زارها في القرن السادس عشر الإفرنجي بقوله «وفي تمبكتو عدد كبير من القضاة والأئمة، يدفع إليهم جميعاً مرتب حسن، ويعظم فيها الأدباء كثيراً، وتباع «فيها» أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من شمال الصحراء وتدر ارباحاً تفوق سائر البضائع».

ووصفها ـ أحمد بابير الأورواني ـ في مخطوطة له بعنوان «السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تمبكتو البهية» وهي المخطوطة الموجودة بمركز أحمد بابا التمبكتي بقوله: «مقام تمبكتو من السودان، مقام الوجه من الإنسان».

وبعد

لقد كانت منطقة السودان الغربي التي قسَّمها ووضع حدودها الاستعمار الفرنسي بالشكل الذي نراه الآن أسوة بغيرها من مناطق إفريقيا، جزءاً من امبراطورية واسعة الأرجاء امتدت في فترة من فترات التاريخ من المحيط الأطلسي غرباً إلى بحيرة تشاد شرقاً، وقدر مؤرخو المنطقة ومؤرخو العرب سعة هذا الامبراطورية في أوج ازدهارها بمسيرة أربعة أشهر طولاً من الشرق إلى الغرب، وثلاثة أشهر عرضاً من الشمال إلى الجنوب «بمسيرة الإبل».

كانت هذه المنطقة بمدنها الإسلامية الكبرى وعلى رأسها ـ تمبكتو ـ و ـ جنة ـ و ـ كاغو ـ وغاو ـ و ـ كانغابا ـ و ـ ولاتة ـ منارات إسلامية تشع في كامل المنطقة، بنور الإسلام، ونور المعارف والعلوم منذ أن تمكنت قبائل ـ المرابطين ـ القادمين من المغرب من إدخال الإسلام إلى مملكة غانا وعاصمتها ـ كومبي صالح ـ حوالي العام 1076 إفرنجي على يد أحد قادة هذه الحركة وهو ـ أبو بكر بن عمر ـ الذي اهتدى على يديه ملوك وقادة هذه الدولة وأعلنوا إسلامهم، وقاموا على أثر ذلك بالقضاء على المعتقدات الوثنية السابقة بينهم، وأرسوا قواعد المعارف الدينية والثقافية في المنطقة، قبل أن تنتهي هذه الامبراطورية وتضمحل عام 1240 إفرنجي لتفسح المجال أمام قيام دولة إسلامية أخرى في المنطقة وهي امبراطورية مالي الإسلامية.

وعلى الرغم من أن بعض المصادر التاريخية تؤكد أن الإسلام دخل المنطقة مع «المرابطين» في العام 1076 إفرنجي إلا أن مصادر تاريخية أخرى تؤكد أن الإسلام كان موجوداً بالفعل في مملكة غانا قبل هذا التاريخ بوقت طويل.

فالمؤرخ المالي ـ أحمد بابا التمبكتي ـ الذي ولد وعاش في تمبكتو أيام ازدهارها الديني والثقافي والعلمي وألف عشرات الكتب التاريخية عن المنطقة بشكل عام، وأصول الشريعة وشرح معاني ومفردات القرآن الكريم بشكل خاص، إضافة إلى تفاسير الحديث. يقول «إن كومبي صالح عاصمة غانا بها الكثير من المساجد منذ العام 679 إفرنجي» أي بعد حوالي 60 عاماً فقط من هجرة الرسول محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام.

ونجد تأكيداً آخر على قدم وصول الإسلام إلى تلك المناطق في كتابات المؤرخ العربي «أبو عبيد اللّه البكري».

حيث قال أن عاصمة غانا القديمة ـ كومبي صالح ـ «كانت مكونة من مدينتين سهليتين إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة بها 12

مسجداً أحدها يجمعون فيه، ولها أئمة ومؤذنون راتبون وفيها فقهاء وحملة علم» بينما كانت المدينة الثانية تبعد عنها بمسافة قصيرة وهي خاصة بالملك وحاشيته وحكومته، وهي معلومة، أكد عليها أيضاً المؤرخ العربي ـ ابن حوقل ـ عام 965 إفرنجي.

وتذكر مصادر تاريخ المنطقة أنه كانت هناك العديد من مدن المنطقة عرف فيها الإسلام منذ زمن بعيد وهي مدن ـ تكرور ـ وساي ـ على نهر السنغال ـ ويقال أن أهلها أسلموا على يد رجل من أهل المنطقة يدعى «رابيش وارجاي».

كما تذكر المصادر التاريخية أيضاً أن القبائل المالية من جماعة ـ الساراكوللي ـ عرفت الإسلام منذ القرن التاسع الإفرنجي، وكانت العاصمة التي أنشأتها هذه القبائل في ـ أوردغست ـ بها الكثير من المساجد قبل فترة وصول المرابطين للمنطقة.

كما قامت القبائل والمجموعات المحلية التي هداها الله عز وجل لنور الإسلام من قبائل ـ السوننكي ـ و ـ الديولا ـ و ـ الوولف ـ و ـ البولار ـ و ـ الجولا ـ و ـ الماندينغ ـ و ـ الهوسا ـ و ـ البمبارا ـ و ـ الفولانيين ـ وغيرها الكثير من قبائل المنطقة وبجهد رجالها المخلصين، هي التي قامت وتكفلت بنقل رسالة التوحيد الختامية لبقية المنطقة، مما أدى إلى توسع انتشاره واعتناق الملايين له على مدى القرون السابقة لوصول المستعمرين للمنطقة والذين حاولوا بكل إمكانياتهم، وبكل جهود جمعياتهم التنصيرية وقف نمو الإسلام، إلا أن نور الله واصل تقدمه بثبات وحافظ على انتشاره بفضل الله وبفضل المؤمنين من أبناء المنطقة تصديقاً لقوله عز وجل: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ صدق الله العظيم.

خاتمة

لقد كانت الصفحات السابقة رحلة عبر مجاهل التاريخ الذي حاول المستعمرون الغزاة ومنذ أن نكبت بهم قارة إفريقيا طمسه ووأده، أثناء محاولاتهم اليائسة لقطع الصلات الحضارية والدينية والثقافية التي جمعت أبناء غربي القارة وشمالها ووسطها في مختلف العصور والحقب، صلات وعلاقات جمعتهم على الخير والبركة وتبادل المنافع والمصالح بحب واحترام، قبل أن يتدخل أولئك الغزاة بجحافلهم المدججة بأحدث أسلحة الفتك والدمار وتزييفهم لوقائع كانت قبلهم، في سعي محموم لإيهام أبناء القارة بأنه لا تاريخ ولا ثقافة كانت تجمعهم بأشقاء آخرين من أبناء إفريقيا، ولا روابط دم ومصاهرة وأنساب اختلطت بينهم على مدى التاريخ.

وإضافة إلى ذلك حاول المستعمرون تغريب الإنسان الإفريقي عن ذاته نفسها من خلال تسويقهم لجملة من المغالطات والدسائس المتعمدة التي كان هدفها قطع صلته بأرضه نفسها، وجعله تابعاً يدور في فلك الدول الاستعمارية، خادماً لها وللإنسان الأبيض فيها، بعد أن امتص ذلك المستعمر واستنزف خيرات أرضه وثرواتها لصالح ذلك المستعمر الأبيض المتكبر والمتعجرف.

إن مهمة أجيالنا الحالية وبعد أن أزيح عنها كابوس ذلك المستعمر البغيض

وبعد أن وعت عقولنا ذاتها وما تمثله هذه الذات من أهمية بالغة في إعادة وصل ما انقطع، وإعادة رسم ملامح الإنسان الإفريقي العظيم الذي كان يتنقل عبر أرجاء القارة السمراء حراً وسيداً دون دخيل أو وسيط.

مهمة أجيالنا الحالية واللاحقة هي في غاية الأهمية، خاصة وأن الأعداء السابقين ما زالوا يتربصون بنا معاً، وما زالت تداعبهم أحلام العودة لاستعمار قارتنا السمراء وإن تطورت أساليبهم ووسائلهم لنهب المزيد م ثرواتها وخيراتها لصالح إنسانهم الأبيض المتعفن بأفكار التفرقة والعنصرية البغيضة، والذي لا يرى إلا نفسه وذاته في هذا العالم، وهي مهمة تتطلب الوعي بما يدور حولنا من مؤامرات ودسائس وعمليات تغريب سخّرت لها أحدث وسائل التقنية والاتصالات لمسح العقول وإعادة الغربة لها مرة أخرى، كما أنها مهمة تتطلب منا أن نسابق الزمن لإعادة رسم تاريخنا وحضارتنا المشتركة والدفع بأحلامنا بأن يسود دين المحبة والسلام، وخاتم رسالات الخالق عز وجل للبشر كافة، أنحاء هذه الأرض التي خلقها الباريء عز وجل لتكون مستقراً لنا إلى حين، وأن نعمّرها بحب الله الواحد الأحد الذي ليس كمثله أحد، والذي لم يلد ولم يولد، ولم يجعل لنا وسطاء في معرفته والتقرب إليه، سوى أعمالنا وأفعالنا، والذي خلقنا جلَّت قدرته متساوين لا فرق بيننا عنده إلا بمدى التزام كل منا بأوامره ونواهيه، ومدى تقرب كل منا منه عز وجل بالصلاة والعبادة له وحده.

إنها مهمة صعبة.. ولكن الثقة في وعي وإدراك أبناء إفريقيا من المسلمين الذين هداهم الله عز وجل لنور الإسلام ووعدهم جزاء ذلك الجنةِ ونعيمها، ستجعل من الصعب سهلاً، والمستحيل حقيقة، إذا ما أخلص الإنسان لذاته وعقله، والتزم بحب خالقه العظيم وحده.

والله من وراء القصد.

16

مـلاحـق

يقول المؤرخ العربي ابن خلدون ـ أن اسم «إفريقيا» مشتق من اسم أحد ملوك التبايعة اليمنيين وهو ـ أفريقيش بن قيس بن صيفي ـ.

وكان المؤرخ والجغرافي الروماني ـ بليني ـ الذي مات حوالى العام 115 إفرنجي هو أول من أطلق اسم «نجريتيا» Nigritia على منطقة السودان الغربي، وهي كلمة منسوبة إلى نهر النيجر والتي كانت تعني «نيل الأجناس السوداء» وهو النهر الذي يبلغ طوله حوالى 1500ميل، يقطعها في رحلة طويلة عبر الصحراء تبدأ من مرتفعات جبال غينيا، وتنتهي في المحيط الأطلسي.

ولفظ «السودان الغربي» هي تسمية عرفت بها منطقة غرب إفريقيا، قبل أن تقسم المنطقة إلى دول بعد أن دخلها الاستعمار الأوروبي في نهاية القرن التاسع عشر الإفرنجي.

وكانت منطقة السودان الغربي قبل وصول المستعمرين الغربيين إليها تتمتع بشهرة واسعة وشبه أسطورية بسبب ثرواتها من الذهب، لدرجة أن بعض الكتاب القدامى كانوا يطلقون عليها اسم «أرض الذهب» وكان على رأس هؤلاء المؤرخين ـ الفرازي ـ الذي زارها حوالى العام 800 إفرنجي بينما وصفها «ابن حوقل» في كتابه «صورة الأرض» بقوله «وغانة أيسر على وجه الأرض من ملوكها، بما لديهم من الأموال المدخرة من التبر المثار».

ولكثرة الذهب في المنطقة، كان أهلها يقايضون التبر بالملح مع تجار القوافل من الشمال الإفريقي، والذي كانوا يأتون به على ظهور الجمال إلى مناطق التصنيع والتصدير على سواحل المتوسط.

ويذكر «بازل ديفدسون» مؤلف كتاب «إفريقيا تحت أضواء جديدة» أن الذهب القادم من تلك المناطق وحتى العام «1492 إفرنجي» ـ تاريخ اكتشاف قارة أمريكا ـ كان هو المصدر الرئيسي لتمويل العالم كله بالذهب».

وعندما دخلت قوات «أحمد المنصور» المغربية للمنطقة وفرضت سلطتها عليها واستحوذت على كامل تجارة المنطقة من الذهب، ثم إنشاء دار لضرب النقود في ـ تمبكتو ـ.

وأصبح الذهب الذي كان يصدَّر خاماً في السابق، يضرب مثاقيل ودنانير في بيت المال بالمدينة، لم تكن تشبه لا في الشكل ولا في الوزن مثيلاتها في الشمال الإفريقي.

وإضافة إلى الذهب، اشتهرت هذه المناطق بالعاج، وريش النعام، والنحاس، والحديد وتنوع المحاصيل الزراعية فيها بسبب خصوبة أراضيها، وهطول الأمطار الموسمية عليها بكميات كبيرة، وهي الأمطار التي تغذي العديد من الأنهار الشهيرة وفروعها، وعلى رأسها نهري النيجر، والسنغال، والأخير يقال أن اسمه كان وقبل أن يغيّره الفرنسيون «نهر صنهاجة» نسبة إلى قبائل صنهاجة العربية التي كان لها دور بالغ الأهمية في نشر الإسلام بالمنطقة، وهناك أيضاً ـ نهر غامبيا، ونهر فولتا ـ كما اشتهرت المنطقة بوفرة الثروات السمكية فيها.

ولأن العرب القاطنين في الشمال الإفريقي هم أول من اتصل بهذه المناطق، قبل أن يدخلها الأوروبيون بقرون عديدة، فإنهم أول من أطلق اسم «السودان» على المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، وقسموها إلى سودان غربي، وأوسط، وشرقي.

كما أن ـ ابن سعيد ـ الذي كان يعيش في حوالى العام «1282 إفرنجي» هو أول مؤلف عربي يستعمل كلمة ـ بورنو ـ Borno ـ وهي كلمة كانت تطلق على كافة المنطقة التي تقع جنوب وغرب وشرق مرتفعات جبال تاسيلي الواقعة جنوب ليبيا، وعندما جاء المؤرخ العربي ـ المقريزي ـ اقتبس الاسم وتحدث عن ـ كانم ـ كعاصمة لبورنو.

ويصف علماء المنطقة مدينة ـ تمبكتو ـ بأنها هي العاصمة الثقافية لمنطقة السودان الغربي، بينما يصفون مدينة ـ جنة ـ التي حرَّف الأوروبيون اسمها إلى ـ جني ـ Djene بالعاصمة التجارية.

وقد انشئت «جنة» في أواسط القرن الثاني للهجرة، ووصلها الإسلام وأسلمت في القرن السادس من الهجرة، ـ كما ذكر عبد الرحمٰن السعدي ـ ويقال أنها أنشئت على أنقاض مدينة غابرة طواها الزمن والنسيان وهي تبعد عن تمبكتو ـ بحوالى 150كلم إلى الجنوب الغربي منها.

وقد وصفها المؤرخون وعلى رأسهم «عبد الرحمن السعدي» بأنها كانت إحدى أسواق إفريقيا العامة، والتي يجد فيها المرء تجار المغرب «حيث يتبادلون مع سكان جنوب الصحراء الملح القادم من مدينة ـ تغازة ـ بالذهب القادم من الجنوب» وأضاف «أنها مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة، جعل الله في أرضها خلقاً وجلبة، وطبيعة أهلها التلاحم والتعاطف والمواساة وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين، يلتقي ـ فيها ـ أرباب الملح وأرباب الذهب، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها».

وعن فقهائها وعلمائها ودروس العلم فيها يقول نفس المصدر السابق «لقد ساق الله لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها، من قبائل شتى، منهم «مورسغ كنكى» الذي كان فقيهاً صالحاً جليل القدر، في نصف الليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم إلى الإقامة، ومن بعد الصلاة

إلى الزوال، ثم يرجع إلى دراه، ثم من بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، هكذا كانت عادته مع الطلبة».

وكان بالمدينة مسجد ضخم، كان يشاهد من خارج أسوارها من أي اتجاه قدمت منه إليها، ويقال أن موقع هذا المسجد كان في الأصل مقراً لأحد ملوكها، وعندما هداه الله لنور الإسلام جمع علماء مدينته وكان عددهم يزيد عن أربعمائة عالم، وقام بحضورهم بهدم قصره وبنى مكانه، وعلى انقاضه هذا الجامع تعبيراً عن حسن إسلامه.

وبسبب موقع المدينة المحاط بشبكة من الجداول والبحيرات التي يشكلها نهر النيجر ورافده ـ نهر باني ـ تمكنت المدينة من الصمود في وجه كل من أراد احتلالها أو السيطرة عليها، لدرجة أن مؤرخي المنطقة يذكرون أنها استعصت على أغلب سلاطين مملكة مالي الذي أرادوا احتلالها، وصمدت في وجه 99 محاولة غزو وحصار قام بها سلاطين تلك الدولة دون أن تسقط بأيديهم، وفي الحصار الأخير الذي أسقطها وأخضعها، وكان ذلك في عام «1473 إفرنجي» استمر فرض الحصار عليها لعدة أشهر متوالية، مما عرّض سكانها للجوع، وهو أمر اضطرهم في نهاية المطاف للاستسلام وفتح أبواب أسوار المدينة المنيعة.

وقد كانت مدينة تمبكتو هي الأخرى محاطة بسور ضخم لحمايتها من الغزوات الخارجية، وهو سور يبدو أنه تهدم بسبب غارات القبائل المحلية على المدينة، وعندما زارها الرحالة الفرنسي ـ رينيه كالييه ـ في العام «1828 إفرنجي» تحدث عن هدم سورها قبل ذلك بسنتين.

وهناك أيضاً مدينة مالية أخرى حازت على نصيبها من الشهرة والمجد، بسبب تجارتها ومالها ومسلميها، وهي مدينة «غاو» التي أطلق عليها التجار العرب من قبل عدة أسماء من بينها ـ جاغ ـ وكاغو ـ وكوكو ـ.

وهي من المراكز التجارية الهامة في مالي، بسبب موقعها على الضفة اليسرى لنهر النيجر، وقد تحدث المؤرخ العربي ـ أبو عبيد الله البكري ـ عنها

فوصفها: «وأهلها مسلمون، وحواليها المشركون وأكثر ما يتجر فيها بالملح والودع، والنحاس المسبوك» ويضيف: «وحواليها معادن التبر، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً».

وعندما اتخذها ملوك امبراطورية السنغاي عاصمة سياسية لملكهم ازدحمت المدينة بالسكان، وكان عشرات الآلاف يقيمون فيها في تلك الفترة.

ويقول عنها حسن الوزان المعروف باسم «ليون الإفريقي» الذي زارها وسجل معلوماته عنها في كتابه الشهير «وصف إفريقيا» «تعد ـ كاغو ـ مدينة كبيرة على ـ كبارا ـ أي أنها لا تتوفر على سور محيط بها، وتقع هذه المدينة على بعد 650كلم جنوب غربي ـ تمبكتو ـ وبيوتها سمجة المظهر قبيحة، باستثناء بعض المساكن التي كانت جميلة بديعة، يسكنها الملك وحاشيته، وسكان المدينة تجار يجوبون المنطقة باستمرار ببضاعتهم».

«وتؤم هذه المدينة أفواج هائلة من الزنوج يحمل أفرادها معهم كميات كبيرة من الذهب بغية ابتياع السلع القادمة من «شمال إفريقيا» ولم يكن هؤلاء يجدون قط ما يكفيهم من هذه السلع، مما كان يضطرهم إلى إرجاع كميات كبيرة من الذهب كانت تصل أحياناً إلى النصف أو الثلثين مما كانوا يحملونه معهم».

ويضيف «وكانت ـ كاغو ـ متحضرة متقدمة بالنسبة ـ لتمبكتو ـ وكان اللحم والخبز موجودين فيها بوفرة، ولم تكن تتوفر فيها لا الخضر ولا الفواكه، وفي الحقيقة فقد كان البطيخ والخيار والقرع الجيد يوجد فيها بكثرة، وكذلك الأرز بكميات هائلة».

وعن قصر ملكها يقول نفس المصدر السابق «ولدى الملك قصر خاص لإيواء عدد كبير من الحريم والجواري والإماء والخصيان المكلفين بحراسة النسوة، ولديه أيضاً جهاز مهم من الحرس يتكون من الحراس المدرعين المسلحين بالأقواس».

«وتوجد بين الباب العمومي والباب الخاص للقصر ساحة واسعة مسوّرة، في كل جانب من جوانب هذه الساحة يوجد بهو للاستقبال، ولأن الملك كان يباشر جميع أعماله بنفسه فقد كان يحيط به عدد وافر من الموظفين من مندوبين ومستشارين، وضباط وأمناء».

أيضاً هناك مدينة ثالثة نالت من الشهرة ما نالته مدن السودان الغربي الأخرى بل وتفوقت عليها في بعض الحقب، وهي مدينة ـ تادمكة ـ التي وصفها البكري بقوله:

«وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة، ومعنى ـ تادمكة ـ «هبة مكة» وهي مدينة كبيرة بين شعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانة، ومدينة كوكو، وأهل تادمكة بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء «الطوارق» وقد حافظت المدينة على مكانتها كمدينة من مدن السودان الغربي التجارية ومحطة لعبور قوافل الصحراء حتى القرن السادس عشر الإفرنجي».

ولم نحصل على إحصائيات أو معلومات محددة ووافية عن مدى تجارة الذهب الذي كان تجار طرابلس وغدامس وفزان يأتون به من مناطق السودان الغربي مقابل البضائع التي كانوا يبيعونها في تلك المناطق، وهي كميات لا شك أنها ضخمة وتدر على تجار تلك المدن الكثير من الأموال.

وقد وجدت بدلاً من ذلك في بعض المصادر المغربية إحصاءات عن مدى ما كان يكسبه وينقله تجار المغرب، الذين يتاجرون مع مناطق السودان الغربي من ذهب السودان، ثمناً لبضائع كانوا ينقلونها إلى هناك.

وتقول هذه الإحصائيات إن ثروة أغنياء مدينة ـ سجلمانة ـ المغربية في القرن الخامس عشر الإفرنجي، كانت تقدر بمائة ألف دينار ذهب، أي ما يوازي ما بين 350 إلى 450 كيلو غرام من الذهب الخالص، وهي كمية تضاف إليها الديون التي تكون عادة في عهدة التجار المتعاملين معهم، من أبناء المنطقة، والتي توازي ما بين 150 إلى 180 كيلو غرام من الذهب.

وقد قدرت هذه الإحصائيات على ضوء الضرائب التي كانت تحصل عليها سلطات المدينة، والتي كانت تجبى من التجار المتعاملين مع مدن السودان الغربي، وهي ضرائب قدرت في عام واحد، وهو العام «1450 إفرنجي» بمبلغ مائة ألف دينار.

وحسب الإحصاءات نفسها المقدرة في القرن الخامس عشر الإفرنجي، فإن كمية تبر الذهب الذي وصل إلى أسواق المغرب قادماً من منطقة السودان الغربي قدر في سنة واحدة بحوالي 60 قنطاراً.

وبسبب هذه الكميات الهائلة من الذهب المتدفق على بلاد المغرب من مناطق ما وراء الصحراء الكبرى، فإن قناصل أوروبا في مراكش طار صوابهم، وكانت برقياتهم ومراسلاتهم إلى دولهم لا تتحدث عن شيء أكثر من حديثها عن تلك الثروات القادمة من الجنوب، وأبرز ما جاء في مذكراتهم أن الذهب الذي كان يأتي من تلك المناطق كان على نوعين ـ تبر ذهب مسحوق ـ وهو يأتي من المناطق المجاورة لبحيرة تشاد، أما النوع الآخر فكان الذهب القادم على شكل نقد وسبائك خام، والذي كان يأتي من مالي وغانا الحاليين.

وعندما استولى أحمد المنصور السعدي على منطقة السودان بعد سيطرة قواته على امبراطورية السنغاي في مالي عام «1591 إفرنجي» وهو الذي، ونتيجة للكميات الهائلة من الذهب الذي كان يأتيه من تلك المناطق، أصبح يعرف باسم «المنصور الذهبي» وبسبب قراره بمنع عمليات تصدير الذهب التي كان يقوم بها التجار على حسابهم خاماً أو مصنَّعاً باتجاه أوروبا، اضطر التجار لإخفاء الذهب وتهريبه داخل صناديق السكر المصدّر من المغرب إلى أوروبا، وتذكر المصادر التاريخية أن هذه الحيلة انطلت لفترة على رجال الموانىء المغربية الذين كانوا يراقبون الصادرات، ولم تنكشف العملية إلا في عام «1583 إفرنجي» عندما غرقت إحدى السفن الإنجليزية في نهر «التايمز» وكانت تحمل شحنة من صناديق السكر، وعندما ذاب السكر في مياه النهر، ظهرت سبائك الذهب المخفي وسطها.

وتقول المصادر التاريخية المغربية إن الأطماع البرتغالية في تلك الفترة للاستيلاء على ذهب المنطقة، هو الذي أملى عليهم احتلال سبتة المغربية عام «1415 إفرنجي» وطنجة عام «1437 إفرنجي» للسيطرة على الموانىء البحرية المغربية والتي كان ذهب السودان يصدّر عبرهما.

ولأحكام المزيد من السيطرة على ذلك المعدن النفيس، احتل البرتغاليون المزيد من المواقع على سواحل إفريقيا الغربية لضمان عدم تدفق ذهب السودان باتجاه الشمال الإفريقي، نحو المغرب والجزائر وليبيا، وتذكر المصادر التاريخية البرتغالية إن كمية الذهب الذي حصل عليه البرتغاليون من منطقة السودان الغربي في الفترة من عام 1504 إلى عام «1507 إفرنجي» وصل إلى حوالى 434 كيلو غرام من الذهب الخالص، وتقلصت الكمية في العام «1545 إفرنجي» إلى حدود 372 كيلو غرام.

ويقول المؤرخ البرتغالي ـ ب فيلار ـ P. Vilar إن هذه الكمية هي فقط تلك التي تأتي رسمياً باسم ملك البرتغال، أما الكميات الأخرى التي كان يحصل عليها التجار والقراصنة البرتغاليون بطرقهم المختلفة فلا أحد يعرف عنها شيئاً، ولكن المؤكد أنها أكبر من الأرقام السابقة بكثير.

وقد استخدم البرتغاليون والأسبان بعدهم كل الأساليب الممكنة للتأثير على المغرب، فحاصروا سواحله وفرضوا المراقبة على موانئه للاستحواذ على تجارته من الذهب، ومنعوا وصول البضائع إليه، وهي البضائع التي كانوا يعرفون أنها تصدّر باتجاه مناطق الجنوب لمبادلتها بالذهب، وهي عوامل أثّرت على وصول الذهب إلى المغرب، فتقلصت كمياته بشكل كبير.

وفي العام «1500 إفرنجي» وبعد فرض الأوروبيين استعمارهم على الأراضي الجديدة في أمريكا بعد إبادة أهلها. بدأ الذهب المكتشف في تلك المناطق بكميات كبيرة يتدفق على أسواق المال العالمية مما أثر بشكل كبير على تجارة ذهب إفريقيا، وقد قدرت المصادر الإسبانية والبرتغالية كمية الذهب الذي

تم الاستيلاء عليه من الأراضي الجديدة في أمريكا في الفترة من عام «1503» إلى «1510 إفرنجي» بأكثر من 4900 كيلو غرام من الذهب الخالص، وارتفعت هذه الكمية بعد بدء عملية استرقاق الأفارقة ونقلهم للعمل في مناجم الذهب المكتشفة في الأمريكتين لتصل في الفترة من عام «1511» إلى عام «1520 إفرنجي» لأكثر من 9100 كيلو غرام، ثم انخفضت الكمية المصدرة إلى إسبانيا والبرتغال بعد تدفق المزيد من المهاجرين الأوروبيين إلى حدود 4300 كيلو غرام في الفترة من عام «1551» إلى العام «1560 إفرنجي».

وكان لتدفق هذه الكميات من الذهب القادم من الأمريكتين أثره البالغ في تراجع الاهتمام الأوروبي في تلك الفترة بذهب السودان الغربي، وهو أمر استمر قرابة قرن كامل أكمل فيها الأوروبيون استنزاف مناجم الذهب المكتشفة في الأمريكتين قبل أن يعودوا مرة أخرى لنهب ما تبقى من ذهب السودان الغربي.

وفي هذه الفترة تذكر المصادر المغربية أنه وفي العام «1607 إفرنجي» وصلت إلى المغرب قافلة مكونة من ثلاثين جملاً محملة بأربعة أطنان من الذهب، بينما سجل وصول قافلة أخرى إلى مراكش مكونة من ستة جمال عام «1669 إفرنجي» تحمل نحو 600كلغ من الذهب.

والمعروف تاريخياً أن السلطان ـ منسى موسى ـ أشهر سلاطين امبراطورية مالي الإسلامية حمل معه أثناء رحلته الشهيرة إلى بيت الله الحرام عام «1324 إفرنجي» كمية هائلة من الذهب قدرت بحوالي 300 قنطار وهي حمولة مائة جمل.

كما حمل السلطان ـ أسكيا محمد ـ سلطان امبراطورية السنغاي الإسلامية في رحلته إلى الحج عام «1497 إفرنجي» كمية مماثلة من الذهب أذهلت الشرق كله ـ كما أوضحنا ذلك من قبل ـ.

أعلام عرب تحدثو عن تمبكتو

أحمد بابا التمبكتي

هو ـ أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد إقِّيت التكروري التمبكتي السوداني المالكي ـ وهذا هو اسمه الكامل كما جاء في كتابه الشيهر «نيل الابتهاج بتطريز الديباج».

وهو من أشهر علماء تمبكتو على الإطلاق، وأشهر من أرَّخ للمدينة التي ولد فيها عام 1559 إفرنجي فحمل اسمها وعرف به حتى الآن، وأغلب المصادر تذكره وتعرِّفه بهذا الاسم على الرغم من أنه من بيت ـ إقِّيت ـ الذين توارثوا منصب القضاء والفقه في المدينة طيلة حقب طويلة من الزمن وكلهم عُرفوا بلقب عائلتهم ـ إقِّيت ـ.

وقد نال الرجل علومه منذ صباه على أيدي جده ووالده وأعمامه، فوالده كان فقيهاً وعالماً، وقد ترك لولده عند وفاته ثروة من الكتب كما أنه هو الذي أجاز ابنه في علم الحديث والمنطق، وجده كان قاضياً مشهوراً بالمدينة وتولى القضاء فيها لعدة سنين ويعتبر هو المعلم الأول لحفيده في علم الحديث، كما أنه وعلى يديه حفظ القرآن منذ صغره.

أما عمه فقد كان متصوفاً مشهوراً أمضى مدة طويلة في المدينة المنورة. وهو الذي أجاز ابن أخيه في علم اللغة والنحو.

ويقول مؤرخو المنطقة أن أحمد بابا كان فقيهاً وإماماً في مدينته لدى استكمال تحصيل علومه في أوج ازدهارها العلمي والثقافي، ويعتبرونه من ركائز المذهب المالكي في المنطقة كلها، وقد ألف العديد من الكتب التي تناولت وأوضحت هذا المذهب، إضافة إلى نحو 40 كتاباً آخر في مختلف مجالات العلوم الإسلامية والتاريخ.

وعندما استولى المغاربة على تمبكتو عام 1591 إفرنجي كانت أسرة ـ إقِّيت ـ الشهيرة على رأس المعارضين والمحتجين لذلك الاحتلال، فأمر سلطان المغرب «أحمد المنصور السعدي» في عام 1594 إفرنجي بنقل العائلة بكاملها إلى مراكش، وكان من بينهم أحمد بابا نفسه الذي قضى في السجن سنتين قبل أن يتم إطلاق سراحه بشرط مواصلة الإقامة في المغرب.

وهكذا، أمضى أحمد بابا عشر سنوات في مراكش غريباً عن مسقط رأسه، غير أن علماء مراكش الذين عرفوا مكانته وغزارة علومه استضافوه وأكرموه، وسهلوا له مواصلة رغبته في تلقي المزيد من المعارف والعلوم، فعقد ندوات الدروس والوعظ، وشارك في المجالس العلمية التي كانت تعقد بالمدينة، وهو أمر مكن العديد من علماء المغرب من التلمذ على يديه، أمثال ـ المقري ـ صاحب كتابي «نفح الطيب» و«أزهار الرياض» و«قاضي مكناس» و«ابن الغساني» و«مفتي مراكش، الركراكي» وغيرهم.

وعندما توفي السلطان أحمد المنصور سمح خلفه لعائلة ـ إقِّيت ـ بما في ذلك أحمد بابا بالعودة إلى بلادهم ـ تمبكتو ـ فعادوا إليها بعد أن ودعهم على أبواب مراكش عدد كبير من علماء المدينة وقضاتها.

وعاش أحمد بابا بقية أيامه في تمبكتو حتى وافته المنية في الثاني والعشرين من شهر الطير «أبريل» عام 1627 إفرنجي.

وقد اطلقت منظمة ـ اليونيسكو ـ الدولية للتربية والثقافة والعلوم اسمه على المتحف الوطني في تمبكتو قبل سنوات تكريماً منها لعلم هذا النابغة.

حســن الـوزان

كان واحداً من بين ركاب سفينة عربية كانت تمخر عباب البحر المتوسط انطلقت به من بلاده «المغرب» باتجاه الشرق ماراً على السواحل الشرقية لهذا البحر والمحاذية للشمال الإفريقي، عندما هجم عليها قراصنة أوروبا من قطاع الطرق البحرية في منطقة ما بالقرب من جزيرة جربة التونسية، واقتادوه إلى بلادهم إيطاليا صحبة البعض من ركاب السفينة المختطفة وحملوا معهم كتبه التي كان يصحبها معه.

كان القراصنة قد لاحظوا أن الرجل ليس عادياً كبقية من وقع في أيديهم من ركاب السفينة المختطفة، إذ كان يحرص أشد الحرص على عدم ترك كتاب واحد من جملة الكتب التي كانت معه، ويبدو أنه أخبر خاطفيه بأنه من هواة الرحلات والاستكشاف الجغرافي وتدوين ما يشاهده أثناءها، ولذلك قرروا إهداءه إلى بابا الڤاتيكان الذي كان مولعاً بحب العلوم، وهو البابا ـ يوحنا ليون دويديسيس ـ.

وقد وصل الأسير المختطف إلى مقر البابا الذي رحب به عندما عرف سعة مداركه وغزارة معارفه الجغرافية، وخاصة حول أجزاء عديدة من إفريقيا والتي كانت مجهولة بالكامل لأوروبا كلها، ولم يكن أحد يعرف عنها شيئاً باستثناء بعض المواقع على سواحلها الشرقية والغربية، وقد أغوى البابا ضيفه على اعتناق المسيحية، وأعطاه اسمه «ليون» أي الأسد ـ تكريماً له وأصبح اسمه منذ ذلك الوقت معروفاً في الغرب بـ«ليو الإفريقي» Leo africanus.

ويقول عنه المؤرخ الإيطالي «راموريو» «فلما رآه البابا يوحنا ليون وأدرك أنه يهتم بعلم الجغرافيا وأنه سبق له أن ألف كتاباً يحمله معه، أكرم وفادته وأثنى

عليه كثيراً ومنحه مرتبات طيبة كي لا يغادر البلاد، وبعد ذلك ناشده أن يعتنق النصرانية، وهكذا سكن روما طويلاً وتعلم الإيطالية قراءة وكتابة، وترجم كتابه من العربية إلى الإيطالية قدر استطاعته».

وفي عام 1550 إفرنجي يقال أن أحد أعضاء مجلس الأعيان بالبندقية وهو «يوحنا المعمدان راموزيو» نشر كتاباً كبيراً حمل اسم «الرحلات والملاحة» ضم مجموعة من كتابات الرحالة والمستكشفين كان من بينها «وصف إفريقيا» وهو الوصف الذي كتبه الرحالة العربي الإفريقي ـ حسن الوزان ـ قبل أن يفرد له فيما بعد كتاباً منفصلاً حمل نفس العنوان، وحمل اسم مؤلفه «ليون الإفريقي».

ولأن الرجل مكث طويلاً في إيطاليا، وأجاد الحديث باللغة الإيطالية ولذلك أسندت له جامعة ـ بولونيا ـ الإيطالية منصب ـ أستاذ كرسي ـ فيها، كما ألف أثناء هذه الفترة معجماً باللغة العربية والعبرية بمساعدة طبيب يهودي كان يقيم في إيطاليا أيضاً، كما ألف معجماً ضم أسماء العشرات من مشاهير العرب سنة 1527 إفرنجي إضافة إلى عدة كتب أخرى عن بلاد المسلمين.

أما كتابه «وصف إفريقيا» فالراجح لدى الباحثين الذين تابعوا سيرته والشذرات القليلة التي تسربت عن حياته في إيطاليا أنه ألفه قبل أسره في البحر المتوسط، وأنه استكمله لدى إقامته الطويلة في إيطاليا فيما بعد.

وأغرب ما في القصة، هي النهاية التي انتهى بها الرجل، حيث تذكر المصادر التاريخية الإيطالية بالذات أنه تمكن وبطريقة ما من الإفلات من أسره، وعاد إلى تونس حيث توفي بها على ديانة المسلمين، ديانته السابقة، فالمؤرخ الإيطالي «الدوميالي» يقول «أن إقامة «ليون الإفريقي» بمعزل عن محيطه الأصلي كانت بلا ريب تقلقه، والواقع أنه عاد إلى تونس عام 1550 إفرنجي ليحظى بالوفاة في أرض الإسلام وفي حمى دينه الحقيقي».

أما المستشرق «كراتشو فسكي» الذي ألف كتاباً للتعريف بالجغرافيين العرب فقد ذكر عنه «وعقب فراغه من تأليف كتابه بقليل وربما كان ذلك في العام

1548 إفرنجي، تمكن بطريقة ما من الإفلات عائداً إلى إفريقيا وما لبث أن طرح المسيحية وعاد إلى دينه القديم، وقد توفي على ما يبدو في تونس في عهد آخر ملوك الحفصيين وذلك سنة 1552 إفرنجي عن عمر يناهز الستين عاماً».

اسمه الكامل ـ الحسن بن محمد الوزان الزياني ـ المولود في غرناطة بين سنوات 1489 ـ 1495 إفرنجي وهو من أصول مغربية، هاجرت أسرته من الأندلس واستقرت في مدينة ـ فاس ـ المغربية، وكان عمره يومها أربع سنوات، وتلقى تعليمه في مدارسها وكتاتيبها القرآنية أسوة بأقرانه من أهل البلاد، ودخل الوظيفة وتقلد العديد من المناصب في بلاط حكامها، وأرسل للقيام بالعديد من المهام الدبلوماسية لحساب ملوك المغرب من «الوطاسين» في العديد من مناطق الشمال الإفريقي، وبخاصة في مناطق جنوب الصحراء، فجاب مناطق السودان الغربي والأوسط وعرف ما لم يعرفه أنداده وأترابه من البلدان والناس، ويقال أن عمره لم يتجاوز الثلاثين عاماً عندما أسره قراصنة البحر الإيطاليون واقتادوه إلى إيطاليا، واشتهر الرجل في أوروبا كلها وحتى الآن باسمه «ليون الإفريقي».

وفي وصفه لبلاد السودان، يقول حسن الوزان:

«تقسم بلاد السودان كذلك إلى ممالك بعضها مجهول مع ذلك بالنسبة لنا، وتكون بعيدة عن مدى تجارتنا، وهكذا لن أتكلم إلا عن تلك التي قصدتها والتي ترددت عليها لمدة طويلة، وعن الممالك الأخرى التي كان ينطلق منها تجار لبيع سلعهم في البلاد التي كنت فيها، والذين أعطوني عنها أخباراً وفيرة.

ولا أريد أن أغفل أني ذهبت إلى خمسة عشر مملكة في بلاد السودان ومكثت فيها مدة تبلغ ثلاثة أضعاف المدة التي قضيتها على الطريق، وكل هذه الممالك كانت معروفة جداً ومجاورة لتلك التي أقمت فيها، وسأذكر أسماء هذه الممالك بدءاً من الغرب سائراً في اتجاه الشرق وهي ـ ولاتة ـ جنة ـ مالي ـ تمبكتو ـ كاغو «غاو» ـ غوبر ـ أغاديس ـ كانو ـ كاتسنة ـ زقزق ـ وانغارة ـ وانفاره ـ بورنو ـ غاوغة ـ النوبة.

وهذه الممالك الخمسة عشرة والتي يقع أغلبها على نهر النيجر، يمر منها الطريق الذي يسكله الذين يذهبون من ولاته ـ قاصدين القاهرة وهذه الطريق طويلة، ولكنها مأمونة جداً، وهذه الممالك متباعدة بعضها عن بعض وتنفصل عشر منها بعضها عن بعض بصحارى رملية أو بواسطة نهر النيجر.

وعلينا أن نعلم أن كل مملكة كانت في الماضي تحت حكم عاهل متميز، ولكن خضعت في عصرنا لهيئة ثلاثة ملوك، وهم ملك تمبكتو، الذي يملك القسم الأعظم من الممالك المذكورة، وملك بورنو الذي يملك أصغر قسم، وملك غاوه الذي يستحوذ على الباقي تحت سلطته، ولكن من الصحيح أيضاً القول بأن ملك ـ دوكالا ـ يملك هو أيضاً دولة صغيرة.

وهنالك عدة ممالك أخرى تتاخم من جنوب الممالك المذكورة آنفاً، مثل مملكة ـ بورية ـ و ـ تميام ـ و ـ دوامه ـ و ـ مدره ـ و ـ قدوان ـ وملوك هذه الممالك وسكانها أغنياء وتجار نشطون وينشرون العدالة، ولهم حكومة جيدة، أما سكان الممالك الأخرى فيعيشون في أوضاع أكثر رداءة».

ابـن بطوطـة:

هو ـ أبو عبد اللّه محمد ـ الشهير باسم ـ ابن بطوطة ـ المولود بطنجة المغربية يوم 24/ 1/ 1304 إفرنجي. وعندمابلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً غادر مسقط رأسه قاصداً أرض الحجاز لأداء فريضة الحج، وهي رحلة مر خلالها على الجزائر وتونس وطرابلس الغرب، ومصر وفلسطين، ولبنان وسوريا وجزيرة العرب.

وبعد أدائه لفريضة الحج اتجه إلى العراق، وبلاد فارس، قبل أن يعود مرة أخرى إلى الحجاز ومنها إلى اليمن، ومن خلال باب المندب، اتجه إلى السواحل الشرقية لإفريقيا، ثم عاد مع مراكب التجار العُمانيين إلى مسقط، ومنها إلى البحرين فبلاد الحجاز، ومنها إلى مصر.

ومن مصر اتجه إلى فلسطين فلبنان، وتوغل شمالاً إلى بلاد القوقاز عبر القسطنطينية، فجنوب روسيا ثم آسيا الصغرى، فزار تركمنستان وأفغانستان والهند وبلاد التبت والصين، ثم قفل راجعاً فزار الهند مرة ثانية وباكستان ثم بلاد فارس والعراق وسوريا، والأردن ومصر، ثم توجه إلى ليبيا وتونس والجزائر ليصل في نهاية المطاف إلى المغرب سنة 1349 إفرنجي.

ولذيوع شهرة رحلته الطويلة التي استمرت 24 عاماً متواصلة استقبله سلطان المغرب «أبو عنان المريني» استقبال الأبطال، ووضع رهن إشارته وفي خدمته أحد كتَّاب ديوانه ليُملي عليه قصص رحلاته ومشاهداته التي لم يفعل مثلها من العرب أحد قبله.

وبعد الانتهاء من سرد الجزء الأول من قصص رحلاته، ومغامراته، والتي استغرقت عاماً كاملاً، غادر المغرب مرة أخرى في عام 1350 إفرنجي متجهاً شمالاً هذه المرة، فزار جبل طارق وملقا، وغرناطة، وعدة مدن إسبانية أخرى، وعاد إلى بلاده في العام التالي، وبعد عام آخر غادر بلاده مرة ثالثة واتجه جنوباً مخترقاً الصحراء الكبرى، فزار تمبكتو، وعدة مدن مالية أخرى ثم اتجه إلى النيجر، وغينيا وعاد إلى فاس عام 1354 إفرنجي».

وبعد نحو ثلاثين عاماً قضاها كلها في الرحلات والجولات والتي شملت جميع البلدان التي ذكرناها، إضافة إلى غيرها، بدأ في تدوين وجمع ملاحظاته ومعلوماته عن تلك الدول والبلدان، فخرجت جميعاً في كتاب حمل عنوان «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو الكتاب الذي لا زال يعتبر مرجعاً هاماً من مراجع التاريخ، ووصلت شهرته إلى كافة الأرجاء.

وتوفي أبن بطوطة في العام 1377 إفرنجي عن عمر يناهز الثالثة والسبعين عاماً.

المراجع

- **الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا** ـ تأليف «أتيليو موري» تعريب خليفة محمد التليسي.
- **المختار في مراجع تاريخ ليبيا** ـ الجزء الثالث ـ تأليف مصطفى عبد الله بعيو.
- **تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال** ـ عبدالرحمن سوالمية.
- **التغلغل الفرنسي في شمال إفريقيا وجنوب الصحراء** ـ د. عطية مخزوم الفيتوري.
- **مجلة البحوث التاريخية** الصادرة عن مركز جهاز الليبيين للدراسات التاريخية ـ العدد الثاني السنة الثالثة عشرة ـ ١٩٩١ إفرنجي.
- **موجز تاريخ إفريقيا** ـ تأليف ـ رولاند أوليفر ـ و ـ جون فيج.
- **مملكة مالي الإسلامية** دارسة في التطور السياسي والاجتماعي والثقافي ـ د. عطية مخزوم الفيتوري.
- **مجلة البحوث التاريخية** ـ السنة الرابعة عشرة ـ العدد الثاني ـ ١٩٩٣ إفرنجي.
- **تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها** ـ تأليف الدكتور شوقي الجمل.
- **التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي** ـ إمطير سعد غيث.
- **رحلة عبر إفريقيا «مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبورنو وخليج غينيا»** دراسة وترجمة د. عماد الدين غانم.

المحتويات

مقدمة 5
قبائل الناسامونس 9
أول من دخل الصحراء الكبرى 9
علاقات مشتركة منذ القدم 13
الإسلام يتوغل جنوباً 17
الإسلام يصمد ويواصل انتشاره 21
تمبكتو. . . الأسطورة الغامضة 25
بدء أفول طرق القوافل 29
مكاسب هائلة من تجارة القوافل 33
استغلال الجمعيات العلمية. . لاستعمار إفريقيا 37
غزاة فرنسا يضعون أقدامهم على شواطىء إفريقيا 43
سياسة الحرق والإبادة 49
إنجلترا. . تدخل الميدان 55

الصحراء . . لم تعد غامضة 67
نهبوا كل شيء 79
تمبكتو . . اسمها مركب من كلمتين : تين . . وبوكتو 85
مأوى العلماء العابدين ومألف الأولياء الصالحين 97
خاتمة 107
ملاحق 109
أعلام عرب تحدثو عن تمبكتو 119
المراجع 126

تمبكتو

أسطورة التاريخ

على أرضها أقيمت امبراطوريات، وممالك إسلامية رائعة وعظيمة ساهمت في نشر أعظم وآخر رسالات السماء المبلّغة عن طريق نبينا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام للخلق كافة، وبهذا الدين ارتقت تلك الممالك والامبراطوريات الإسلامية، وسجل ملوك وأباطرة تلك الدول الإسلامية أسماءهم في سجل المجد والفخار لهذه الأمة العظيمة، وبهذا الدين العظيم حمل أولئك الرجال الأبطال لواء الإسلام ليرتفع عالياً. بجهودهم في كافة أرجاء المنطقة.




ISBN 9959-28-021-7
9 789959 280213



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية